أونوريه دي بلزاك

الأب الخالد



روايات الهلال

روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن (دار الهلال) شركة مساهمة مصرية
رئيسا تحريرها : اميل زيدان وشكرى زيدان
مدير التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٤٨ * ديسمبر ١٩٥٢ * ربيع الأول ١٣٧٢

No. 48 * December 1952

بيانات ادارية

ثمن العدد فى مصر والسودان ٧٠ مليما ــ فى الاقطار العربية عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ٩٠ قرشا سوريا ــ فى لبنان ٩٠ قرشا لبنانيا ــ فى الاردن ٩٠ ملسا ــ فى العراق ٩٠ فلسا

قيمة الاشتراك عن سنة (١٢ عددا) : فى القطر المصرى والسودان ٧٠ قرشا ــ فى سوريا ولبنان ٩٠٠ قرش سورى او لبنانى ــ فى المملكة العربية السعودية والعراق والأردن ٩٠ قرشا صاغا ــ فى الامريكتين ٤ ١/٢ دولارات ــ فى سائر انحاء العالم ١٢٢ قرشا صاغا او ٢٥ شلنا

طريقة الدفع

فى مصر والسودان : نقدا او بموجب اذونات او حوالات بريدية او شيكات ــ **فى خارج القطر المصرى :** بموجب حوالة مصرفية على احد بنوك القاهرة او حوالة نقدية (Money Order) او الى احد وكلائنا اذا كان هناك وكيل . ولا يمكن قبول اذونات البريد او العملة الاجنبية .

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك ــ القاهرة
العنوان التلغرافى : روايات الهلال ــ بوستة مصر العمومية ــ مصر
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)
الاعلانات : يتفاهم بشأنها مع قسم الاعلانات بدار الهلال

كلمة التحرير

كتب بلزاك هذه الرواية وهو في ربيع الحياة ، وأوج الشباب ، فقد كان في الخامسة والثلاثين من عمره ، وقد درس الناس ، وعرف الطبائع البشرية الأصيلة ، فهو يقدم فيها نموذجا بشريا من نوع أصيل ، هو الأب جوريو الذى خلق أبا وكفى ، وكانت أبوته هي كل شيء ، بل هي الأبوة الخالدة التي لاتعرف غير الحنان الجارف ، والتضحية الصادقة التي طغت على كل شيء وسلبته كل شيء ، ولم تعرف في الدنيا شيئاً اسمه حب الذات أو اسمه الحق أو المنطق أو الأخلاق ، ما دام الأب يهدف إلى سعادة أولاده

ولقد صور بلزاك في رواياته الحياة الانسانية ومافيها من مفارقات سماها هو « الكوميديا الانسانية » ، وهي في الواقع أحفل بالدموع منها بالابتسام ، وادعى إلى احتقار المجتمع الحافل بالمآسي . ولهذا كان الهدف الأول من هذه الرواية هو النقد الاجتماعي ، وتصوير النفس الانسانية ، بما فيها من فضائل وعثائر ، فهذا الأب الفريد في بر الأبوة يقابله عقوق البنوة العجيب ، وإلى جوار ذلك شخوص تمثل النفاق ، والطمع والخداع والقسوة .. والكاتب المبدع هو الذى يخلق نماذج بشرية ، كلما طالعها الانسان عرف فيها البشر ، وعرف الطبيعة البشرية ذات العجائب والمفارقات

ولهذا كانت رواية « الأب الخالد » من الروايات الفنية التي ترتفع فوق المألوف في الصور الأدبية ، والانتاج القصصي الجيد فقد جرى بلزاك في إبداع النماذج البشرية مع دستويفسكي العظيم أعظم المبدعين في هذا الميدان ، وكلاهما ارتفع في الابداع إلى ما فوق الزمان والمكان



أما الرواية التالية ، فهي « مغامرات مستر بيكويك » للقصصي الأشهر شارل ديكنز ، وتصدر في ١٥ يناير القادم . وهي الرواية المقررة هذا العام على طلبة شهادة التوجيهية بالمدارس المصرية ، وقد ترجمناها ترجمة وافية . وتمتاز هذه الرواية بجمال خيالها ، وحيويتها الفائقة ، وروحها الطريفة الضاحكة . وهو يعرض فيها صوراً ساخرة من أولئك المترفين الأدعياء الذين حرمتهم الطبيعة من المواهب الممتازة بقدر ما أغدقت عليهم من غرور . ولئن كان ديكنز خليقاً بالقراءة في كل زمان ، فهو بها أولى في وقتنا هذا ، وقد نهضنا نهضة مباركة للقضاء على المخلفات وتصحيح الأوضاع والانتصار للعدالة الاجتماعية

الأب الخالد

تأليف

الكاتب الفرنسي

أونوريه دي بلزاك

شخصيات الرواية

الاب جوريو : شيخ فى السبعين فى زمن هذه الرواية ، تركزت فيه عواطف الأبوة وتجرد من كل ما عداها . من العامة أثرى من الاتجار فى السوق السوداء ، وجرد نفسه من ثروته ليهب كلا من بنتيه مليوناً تتزوج به رجلا من علية القوم

دلفين : ابنة جوريو وبارونة دى نوسنجين ، عليلة رجل من كبار رجال المال والأعمال فقط . اشتركت مع شقيقتها فى التبرؤ من أبيها بعد زواجهما لتجعلهما من سواسيته

انستازى : شقيقتها ، كونتس دى ريستو ، عليلة رجل من أعرق نبلاء فرنسا ، كانت أشد على أبيها من أختها

ايجين : شاب من أسرة عريقة أخنى عليها الدهر ، فاعتزلت فى ضيعة حقيرة تحاول ستر اسم « دى رستنياك » وتعقد الأمل على هذا الشاب ايجين الذى يدرس الحقوق فى باريس كى يقيل عثرة الأسرة

مدام فوكير : أرملة عجوز غليظة القلب شحيحة ، تدير خاناً ينزل به الأب جوريو والشاب ايجين

فوتران : نزيل آخر بالخان ، يمتزج فيه الإقدام بالطيبة والمرح ، وسيكون له مع ايجين شأن وينتهى أمره نهاية تثير الدهشة

فيكونتس دى بوسيان : سيدة عظيمة المكانة ، تمت بالقربى الى أسرة ايجين ، تقدمه للمجتمع وتمهد له النجاح فيه



مؤلف الرواية



كان فى العشرين من عمره حينما أتم دراساته العالية فى القانون والآداب سنة ١٨١٩. وأراد أبواه وأفراد أسرته أن يعمل محامياً لكنه أبى إلا أن يتفرغ للشعر والتأليف، وغادر قرية «فيلباريسى» مقر أسرته قاصداً إلى باريس حيث أقام وحده بغرفة صغيرة متواضعة، وأخذ يقضى نهاره فى الدرس والبحث والتطواف فى العاصمة الكبيرة، ثم يعود لغرفته فى المساء فيعد طعامه بنفسه ويقضى ساعات فى الكتابة على ضوء شمعة أو مصباح صغير.

ولم تلق مسرحيته الأولى «كرومويل» ما كان يرجو من نجاح، وكذلك رواياته الشعرية والنثرية الأخرى التى ألفها فى ذلك الحين ومن بينها «الفرسان» و«القديس لويس» و«روبير دى نورماندى» و«سيللا». فاضطر إلى العودة لقريته إذ عجز عن تدبير أمر معيشته بنفسه بعد أن انقطعت عنه الإعانة المالية التى كان يتلقاها من أبيه. وعبثاً حاول هذا أن يقنعه بترك الكتابة والالتحاق بإحدى الوظائف الحكومية أو التجارية، إذ كان لا يطيق قيود الوظيفة ولم يداخله اليأس من أن يصير كاتباً عظيما كما يريد.

وفى سنة ١٨٢٢ عاد لباريس مع أسرته التى انتقلت إليها، وأخرج كثيراً من الروايات بأسماء مستعارة، ثم عمل فى الصحافة وكتب فصولا مختلفة فى الأدب والفن والتاريخ والعلوم النفسية والتجارة والصناعة وغيرها. ونشرت له سلسلة من الروايات البوليسية وقصص المغامرات والأقاصيص الصغيرة بلغ عددها حوالى الأربعين، لكنه لم يكن راضياً عن أكثرها.

وبقى على ذلك سنين، يكتب ليعيش، ويواصل البحث والدرس والاطلاع، وعرف قلبه الحب خلال ذلك غير مرة، لكنه لم يوفق فى حبه وبقى بعد أخته «لورا» صديقته ومرشدته الأولى ويكتب إليها بعد أن تزوجت ليبثها ذات نفسه ويشكو إليها ما يجده من مشقة فى العمل وما يلقاه من مماحكات الأقدار وسوء معاملة الناشرين.

وأخيراً، رق لحاله صديق له من أصحاب المكتبات، فأخذ على عاتقه نشر مؤلفاته. وقد

ذلك الحين بدأ « أونريه دى بلزاك » يصعد سلم الشهرة والمجد الأدبى فى سرعة فائقة، واشتد الاقبال على مؤلفاته . ولقد بلغ عددها حوالى المائة خلال السنين العشر التى عاشها بعد ذلك حتى توفى يوم ٢٠ من أغسطس سنة ١٨٥٠ غير متجاوز إحدى وخمسين سنة

ومنذ سنتين احتفلت فرنسا بمرور ١٠٠ سنة على وفاة بلزاك . وأجمع النقاد الفنيون فى العالم كله على أن إنتاجه الفكرى الغزير خليق به أن يسلكه فى عداد عباقرة المفكرين والكتاب العالميين

وما زالت المسارح فى فرنسا وغيرها تتسابق الى إخراج مسرحياته الشعرية والنثرية ، كما أن كتبه ورواياته العديدة المفيدة ترجمت إلى أكثر اللغات الحية وطبع كل منها عشرات المرات . ويؤخذ من إحصاء رسمى قامت به الحكومة الفرنسية أن مؤلفات بلزاك ظلت تعد أوسع المؤلفات الفرنسية انتشاراً حتى قبيل الحرب العالمية الأخيرة

ومن بين رواياته الرائعة الأخرى : « المهزلة البشرية » و « الحياة العائلية » و « الحياة الباريسية » و « الحياة العسكرية » و« البائع المتجول » و « المجرم النبيل » « وبدء الحياة »



خان فوكير

مدام فوكير امرأة عجوز تدير في باريس خاناً متواضعاً منذ أربعين سنة ، في شارع هادئ، يقع بين الحي اللاتيني وحي سان مارسيل . وفي هذا الخان يقيم أشتات من الخلق ، بين ذكور وإناث ، وشيب وشباب ، ولكنه ظل طيلة هذه الأعوام بنجاة من قالة السوء ، فهو خان طيب السمعة محترم كل الاحترام معروف بالصيانة والاحتشام ، وإن كان بعيداً بمستواه المادي عن ترف الحياة وأبهة المظهر

هذا من حيث المبدأ ، أما من حيث الواقع ، فقد سلفت من الأعوام ثلاثون سنة لم يقم بالخان فيها شاب أو شابة يصلح موضوعاً لقالة أو مظنة سوء ، إلا أن تكون أسرته من رقة الحال بحيث لا تتيح له من المعاش ما يربأ به عن هذا الخان الرقيق الحال

والدار التي يشغلها الخان مملوكة لمدام فوكير ، وتقوم في نهاية شارع « القديسة جنفيف الجديدة » حيث يهبط مستواه ليلتقي بشارع آخر هبوطاً مفاجئاً يجعل صعود الجبل وهبوطها أمراً نادراً . الأمر الذي يضفي على البقعة هدوءاً شاملاً قابضاً للصدور ، فلو عبر بها امرؤ خلي القلب اتفاقاً لوجد لهذه الكآبة صدى في نفسه كذلك الصدى اللازم لصدور أهلها المقيمين بها على الدوام . فناهيك بمكان يعد فيه مرور عربة حدثاً يذكر ويروى ، وتبدو فيه الجدران الكالحة مربدة الوجه كأنها السجون . فهذا الحي الصغير الخامل لا ينازعه في باريس حي آخر في صفات الكآبة والملل وركود الحياة

ويقوم بناء الخان بأدواره الثلاثة وراء حديقة صغيرة تفصله عن الطريق العام . ونوافذه لها مصاريع خشبية ذات ثقوب كخلايا النحل فيما خلا الطابق الأرضي فنوافذه مزودة بقضبان متقاطعة من الحديد . وخلف البناء فناء صغير ترتع فيه في ألفة عجيبة صنوف الخنازير والدجاج والأرانب . وفي مؤخرته مخزن لخشب الحريق

والطابق الأرضي يتكون من مدخل تضيؤه نافذتان تطلان على الشارع يؤدي الى قاعة المائدة التي يفصلها عن المطبخ تجويف السلم الخشبي . والواقع أن المدخل يقوم مقام قاعة الجلوس وهو مكان لا يضارعه في كآبته مكان آخر من حيث الشكل والضوء والأثاث

أما قاعة المائدة فأثاثها عتيق وأدواتها ناصلة الطلاء وخزفها من أخس الأنواع . ولو أننا تحرينا الدقة في بيان مقدار بلى الأثاث لحملنا هذا الوصف على إطالة لا يتيسر الخلاص منها الى لباب قصتنا

وتأخذ هذه القاعة أبهتها - النسبية طبعاً - حين تؤذن الساعة السابعة صباحا بظهور « هر » لمدام فوكير قافزاً هنا وهناك يلعق بلسانه اللبن من الفنجان المعد لهذا النزيل أو ذاك . ثم لا تلبث الأرملة فوكير أن تعرق جلدتها وعلى رأسها طاقيتها المصنوعة من التل ، تلك الطاقية التي تعلو طاقية أخرى ليست من التل ولكن من الشعر المستعار ، وهي تخطر في القاعة بجررة خفها الضيق ، ويتقدمها أنف كمنقار الببغاء يتوسط وجها أكل عليه الدهر ولكنه لا زال سمينا متناسبا في ذلك مع جسمها المكتنز ، وشخصها على الجملة يحكي في صورة حية هذه القاعة التي ينم كل ما فيها على البلى والأفول . فلا نعدو الحق اذا قلنا إن مدام فوكير تمثل الخان والخان يمثلها أصدق تمثيل ، فقميصها الذي يتدلى الى ماتحت ثوبها ، وثوبها الذي نال منه القدم بشكل واضح حتى تغير لونه ، صورة صادقة تلخص للناظر قاعة الجلوس وقاعة للمائدة بما فيهما من تنافر

ويقال مع هذا - والعهدة في هذا القول على النزلاء - إنها امرأة طيبة السريرة رقيقة القلب ، ولعلهم يرثون لها ويظنون بها الاملاق لأنهم لا يسمعون منها إلا شكوى الفاقة فيظنون حالها كحالهم

وما من أحد يدري من كان زوجها المسيو فوكير . فهي لا تتحدث أبداً عن المرحوم . وانما تكتفي إذا سئلت كيف أضاع ثروته بأن تقول إنه فقدها في نوازل الأيام . ثم تثني بوصف قسوته عليها قسوة جففت دموعها ولم تترك لها فضلة من الشعور بالألم حتى تتأفف من عيشها النكد الذي لا مورد له إلا هذا الخان الكثير النفقة القليل الموارد

ومتى سمعت الخادم السمينة « سلفي » التي تقوم بأود المطبخ ولم أطعام سيدتها ، سارعت الى تقديم الافطار للنزلاء . وعددهم وقت حوادث هذه القصة سنة ١٨١٩ سبعة

وكان الطابق الأول يضم جناحين تشغل مدام فوكير أقلهما حظا من أسباب الراحة وتشغل الآخر مدام كوتير وربيبتها الشابة فيكتورين تايفير وتدفعان معا ١٨٠٠ فرنك سنويا

أما الطابق الثاني فيشغله موظف شيخ يدعى بوابريه ومملاق في الأربعين يصبغ سوالفه ويزعم نفسه تاجراً واسمه فوتران

أما الطابق الثالث ففيه أربع حجرات مؤجرة منهما اثنتان ، وتشغل إحداهما عانس هي الآنسة ميشونون ، ويشغل الأخرى شيخ طيب القلب ينادى باسم « الأب جوريو » !

والحجرتان الأخريان تؤجران للمارين الذين لا يستطيعون دفع أكثر من خمسة وأربعين فرنكا في الشهر نظير النوم والطعام . ويشغل إحدى هاتين الغرفتين في الوقت الحاضر شاب من أبناء الريف من قرية من أعمال مقاطعة انجوليم أتى الى باريس لدراسة القانون وهو سليل أسرة نبيلة أخنى عليها الدهر ولكنها تتحمل ألوانا قاسية من الحرمان في سبيل توفير مائة فرنك شهريا تدفعها الى يد هذا الشاب ليدبر بها أمر مقامه وتعليمه وغذائه وكسائه . وذلكم هو « ايجين دي رستنياك »

وفوق الدور الثالث حجرة الغسيل وخزانتان صغيرتان هما عندها الخادم « كريستوف » والطباخة « سيلي »

فكان مجموع نزلاء الفندق المقيمين فيه سبعة ، يضاف اليهم « منتبون » من الخارج يتناولون وجبة العشاء فقط وعددهم عشرة . لهذا تحفل قاعة الطعام في المساء بعدد كبير يتجاذبون أطراف الحديث فتكون لأصواتهم جلبة في تلك القاعة المعتمة . أما في الصباح فلا يتجاوز عدد الطاعمين ثمانية بما فيهم ربة الخان مدام فوكير فتبدو القاعة كأنها حجرة طعام عائلية تقوم فيها مدام فوكير بدور الأم . فالنزلاء يجلسون الى المائدة بملابس المنزل وفي أرجلهم النعال الخفيفة ، ويتبادلون التعليقات وأطراف الحديث بصورة ودية لا كلفة فيها

ولكن أزياء هؤلاء النزلاء لا تنافر بينها وبين الخان وأثاثه الزرى . فالرجال عليهم حلل الربدنجوت التي خف لونها ورث أديمها حتى ما تدرى لرثتها لونا معينا أو صنفا من أصناف النسيج معروفا بذاته على وجه التحديد . وأحذية الخروج ليست أحسن حالا من الحلل فهي بحالة ليس لها مثيل في غير ذلك الحي الفقير من باريس إلا مطروحة على قارعة الطريق

وثياب النساء ليست خيراً من ثياب الرجال بكثير ، فهي تشكو كثرة ما قلبتها الأيدي لتبديل صورتها أو إعادة صبغها بعد أن حال لونها مرات ومرات

وإذا كانت هذه هي الثياب ، فما كانت الأجساد التي تكتسي بها أحسن حالا : فهي أجساد مرهقة ترك عليها صراع الزمن آثاره واضحة من هزال أو تغضن . فكل واحد من هؤلاء يحكي بشخصه مأساة حية بلغت ذروتها وتمت فصولها ! وهي في طريقها الى الفروة والختام . مآس ليست كتلك التي تعرض في ملاعب التمثيل ، فان سوء طالعها حرمها لمة الصناعة وترويق التأليف المحبوك والاخراج المنمق . إنها مآس كئيبة تعيش حاسرة الرأس لا يلتفت اليها أحد

ان نزلاء خان فوكير هم أليق الناس وأولاهم بالحياة في ذاك الخان لأنهم مثله من نفايات الحياة فمن هم هؤلاء النزلاء على التحقيق ؟



نزلاء الخان

هـــذه الآنسة « ميشونو » التي تقدمت بها السن حتى نالت من نور عينيها ، فهي تجعل فوقهما وقاء من نسيج أخضر اللون يمسكه برأسها سلك من الحديد ، فلو رآها ملك من ملائكة الرحمة لولى منها فراراً ولامتلأ منها رعباً . أما شملتها ذات الشراريب الطويلة فيخيل اليك أنها تغلف كنز هيكل عظمى أو مومياء ، لجسمها من النحول وبروز العظام بحيث يبدو الناظر بقايا جثة بشرية عدا عليها الموت من سنوات . وإنها لحيرة العقول أن تدرك كنه ذلك السائل المحضى الخفى الذى أتى على علامات الأنوثة فيها فليس فى جسدها استدارة واحدة من تلك الاستدارات التي تتميز بها أجساد النساء ، وإنه ليبدو أنها كانت يوما ما ذات صبا وجمال فأين آثار هذا الجمال إذا كان الصبا قد ذبل وزال ؟.. هل أتى عليه البخل أو الطمع ؟.. وأى النساء هى ؟.. هل كانت حياتها قصة حب لوى ؟.. أو هى لم تعرف الحب ؟.. وهل كانت تعيش من الاتجار بالثياب المستعملة والنفايات البالية ، أو هى مومس لم تعد لها على الزمن سوق نافقة ؟...

من يدرى ؟.. كل الذى تراه العين منها هو نظرتها الباردة الجامدة التي تسرى لها فى العروق رعدة ، ومعارف وجهها التي يتوجس الانسان منها أن تأخذه نفرة غامضة. أما صوتها فله نبرة حادة عالية كنقيق الضفدع فى بركة غاض منها الماء . وهى تزعم أنها كانت ممرضة لشيخ ثرى أوصى لها بمعاش سنوى قدره ألف فرنك ولكن ورثته يماطلونها دائماً ولا تجد فى طاقتها ماتدفع به عن حقها أمام هؤلاء الأقوياء

وندع الآنسة ميشونو لننظر فى أمر السيد « بواريه » فمن هو السيد بواريه ؟ انه ضرب من ضروب المخلوقات الآلية . انه انسان آلى يتحرك كما تتحرك الأشباح ، شبيه هزال الأشباح وصمتها وكآبتها، وفوق رأسه قبعة عتيقة وفى يده عصا لها رأس مكورة من العاج الأصفر يقبض عليها بأطراف أصابعه وذيول سترته الطويلة الواسعة تعبث بها الرياح وساقاه الهزيلتان تتخبطان فى مشية كمشية السكران، فاذا تأملنا صدره ألفينا قميصاً أبيض قذراً فوقه صدار أبيض يبارى القميص فى القذارة وتعلوهما جميعاً عقدة تلتف حول عنق هو أشبه الأشياء بعنق الديك الرومى ! أما سرواله فهو ضيق ولكنه رغم ضيقه يبدو مطويا على هباء وفضاء ! فمن يراه لايخطىء أن يتساءل من أى سلالة غريبة هو وأى عمل مرهق أضناه إلى هذا الحد وأى عاطفة مشبوبة أكلت جسمه حتى صار إلى هذا النحول الذى لو جرت به ريشة رسام كاريكاتير لكان من المبالغة التي تحمل على

محل التهويل ... ولا يمكن أن يتصور الانسان لهذا المخلوق عملا اليق به من وظيفة في وزارة العدل يختص فيها بحسابات آلات الاعدام والعاملين عليها وما يلزم لها من حبال وشحذ وما إلى ذلك من أقنعة سود وسلال تجمع فيها الرؤوس المقطوعة . أم لعله يعمل جنيا معكوسا على باب للذبح العام لماشية باريس ...

ومهما يكن من أمر مهنته الحقيقية فالرجل يبدو لأول وهلة بطلا استنفدت قواه كثرة العمل في خدمة الدولة . فهو نفاية من نفايات الحياة الاجتماعية . انه عامل من الذين يسخرون كذباب القط لاستخراج الكستناء من النار ، ولكنهم يجيئون ويموتون وهم يجهلون مجرد أسماء أولئك الذين يحرقون هم أصابعهم لكي يخرجوا لهم الكستناء . وباريس المظلمة تحفل بهؤلاء من دون أن تدرى عن آلامهم شيئاً . ولا غرو ، فباريس بحر خضم ليس لمده آخر ولا لغوره قرار . وفى هذا اليم المتراى تيارات خفية ومخلوقات لا حصر لها ، فمهما فتشت فيه لاشك واجد جديداً يروعك بنفاسته أو بجعه وبشاعته: ففيه اللآلىء والأصداف وفيه الأزهار والأخطبوط وفيه القيران التي لم يعلم بها بشر كما أن فيه حطام آلاف السفائن التي اختصرت لها الأنواء رحلتها الى مرفأ بعيد

وخان فوكير بما فيه من الآنسة مونوشو والسيد بواريه كهف من كهوف بحر باريس المجهولة يحفل بمخلوقات مما تعيش في الأعماق البعيدة ليس لها مثيل في البشاعة وغرابة التكوين



ولكن في هذا الكهف الناثر وبين هذه المخلوقات المنفرة تبرز شخصيتان بينهما وبين سائر نزلاء الخان تباين كبير

وأول هذين ، أو أولاهما على الأصح ، هى « فيكتورين تايفار » وانها لفتاة في ٢٠ بل المدمر على محياها ذلك الشحوب الذي يتميز به من أصابتهم علة الصدر ، وتفيض من عينيها نظرة حزينة تنبي عن أسى مكنون وهم مقيم ، وفى قامتها تلك الرقة المرضية التي تدل على تكوين ضعيف لا قبل له بمواجهة أنواء الحياة . وهى بهذه الصفات تشارك فى الجو العام الذى ترك طابعه فوق كل ما يتصل بخان فوكير ونزلائه . ولكن ما فى وجهها وصوتها من صبا وفى حركاتها من نشاط وحيوية عصبية كان ينأى بها عن ذلك الجو ويفردها بمزية خاصة بها

ولكن هذا الصبا إذا دقق المرء النظر فيه وجده أدعى إلى الأسى من الشيخوخة الفانية فقد ذوت أوراقها تحت ضربات الجفاف العاطفى والأبوى حتى صارت كالنبات الذى ينقل من تربة إلى تربة فأعوزه الجو الصالح للحياة والنماء . بيد أن الناظر فى عينيها الرماديتين اللتين تضربان إلى السواد يرى فيهما تلك الوداعة الناجمة عن ذلك التدين الشديد وذلك الاذعان الذى يورثه الايمان من يعتصمون به حين تحز بهم مشكلات الأمور . ولقد أفادتها هذه الرقة حتى انقذ بدت باليأس إلى المحيط الذى تعيش فيه كالزهرة الجميلة فى خربة مملوءة بالعفن . ولولا شجنها الدائم

لكانت جيلة الملامح . ذلك أن السعادة تضفي على المرأة جمالا سلبتها إياه مقاييس جسمها أو معالم خلقتها ، لأن جمال السعادة هو الوضاءة الشاعرية وهالة الأحلام التي تجعل من المرأة شمعة تطيف بها فراشات القلوب . فلو أن فرحة الرقص في ثوب جميل صبغت وجنتها الصفراء بحمرة الحماسة والسرور ، ولو أن كيوبيد أضاء بشعله السحري ومضات الحب في عينيها، إذن لكان في مقدور فيكتورين تايفير أن تبارى أملح الفتيات وتنازعها قصب السبق في مضمار الجمال . ولكن المسكينة تفتقر إلى أهم مقومات الجمال في المرأة وأهم مزكيات حسنها إلا وهو الثوب المليح ، والحذاء الرشيق ، وخطابات الغرام الوردية اللون المعطرة الأنفاس

فن هي ؟.. إن والدها لديه من الأسباب ما يحمله على عدم الاعتراف بها . وهو ثرى واسع الثراء ، ولكن قلبه مثل ذهبه برودة وجودا . وهو يختص شقيقها بالرعاية ، ويشاركه ماله ، وهو مزمع أن يورثه إياه كله أما هي فلا يريد أن يراها ولا أن يسمع عنها ، ولا يخرج لها من ماله الضخم الا عن خمس فرنكا في الشهر

ولما كانت والدتها من قريبات مدام كوتير فقد تبنتها هذه السيدة بعد وفاة والدتها كسيرة القلب بما لقيت من عنت زوجها وسوء معاملته . ولكن السيدة الطيبة القلب لا تملك الا معاشاً ضئيلا عن زوجها ، فاذا انتقلت إلى جوار ربها فنذا الذي يرعى تلك الفتاة التي لا نصير لها في هذا العالم الذي يناصبها العداء ؟

والسيدة الرحيمة تصحب الفتاة إلى الكنيسة صباح كل أحد، وتأخذها الى كرسي الاعتراف مرة كل أسبوعين ، لكي تظل على اتصال دائم بمنبع العزاء المستمد من ممارسة طقوس الدين وتقوى الله . فالإيمان بعالم آخر هو الوئل الوحيد لأولئك الذين خاب أملهم في الحياة الدنيا . وقد أفلحت هذه الخطة في اضفاء الرقة والوداعة على الصبية اليتيمة، بحيث لم تكره والدها برغم ما أتاه في حقها ولا زال لديها أمل في استمالته . فهي تذهب مرة في كل سنة لتلقي ما رصده لها من مال وتحاول عبثاً أن تقابله لأنه يقفل دونها بابه . وليس أخوها خيراً من أبيها . ومع ذلك فهي تذكرهما في صلاتها اليومية وتدعو الله أن يرقق قلبيهما من غير إدانة لهما أو ملام

ولم تكن مدام كوتير ومدام فوكير تتحرجان في صب اللعنات على الوالد والأخ ، فان جرمهما كان يبدو للسيدتين أفظع من أي وصف ورد في القاموس ، فاذا سمعتهما فيكتورين أجابتهما بعبارات رقيقة لتنهاهما عن هذا الاقذاع ، فتقع تلك العبارات على السمع كنوح الحمام الذي مهما صدر عن ألم شديد فهو لايخلو من العطف والمحبة ولا يمكن أن يصدر عن حقد أو بغضاء

هذه فيكتورين تايفير . فن هو الشخص الآخر الذي يشاركها في المداينة لسائر نزلاء الخان؟

انه ايجين دي رستنياك . الفتى الريفي الأبيض الوجه الأسود الشعر الأزرق العينين . وإن سيماه وآداب سلوكه لتنم بوضوح عن أصل عريق وتربية حسنة . وهو وان اجتهد في الاقتصاد في نفقة ملابسه إلا أنه يحسن أن يبدو في بزة حسنة وأناقة لابأس بها إذا حضرت المناسبة التي

تستأهل هذه العناية . ولكنه فى الأحوال العادية يرتدى حلة قديمة وينتعل حذاء بايت جدته وخصف نعله



وإلى جوار هذا الشاب وتلك الشابة يبرز شخص آخر ليس من طراز بقية النزلاء . انه « فوتران » . وهو رجل هائل الجثة فى الأربعين من عمره يصبغ سوالفه ويبدو عليه المرح الشديد والاقبال على الحياة . وله كتفان عريضان وصدر واسع وذراعان فيهما عضل كبير وتنتهيان براحتين كبيرتين يعلو أصابعهما شعر أحمر كثيف . وما يرتسم على وجهه الضخم من غضون مبكرة انما يدل على خشونة تنفيها عنه معاملته الهينة لسائر الناس فهو لطيف المعشر خدوم لايسمع بشىء فسد إلا بادر إلى اصلاحه بيديه فهو على ما يلوح ذو خبرة بجميع الحرف من الملاحة إلى أقاليم الريف إلى ادارة الأعمال وشئون الاقتصاد ودقائق القانون وكبار البيوتات ولوائح السجون ! . وإذا ضاقت بأحد معارفه الأزمات بادر إلى معونته وكم من مرة أقرض مدام فوكير ونزلاءها مبالغ لا بأس بها . ولكن مامن أحد كان يمطله حقه أو يتلكأ فى سداد القرض لأن له نظرة مخيفة إذا جد الجد ، فله عينان ثاقبتان تنفذان فى حنايا الصدور وتخترقان الحجب وتكتشفان ما ينطوى عليه الناس من مشاعر وأفكار

وكان من عادته أن يخرج بعد الافطار ليعود ساعة العشاء ثم يختفى طول السهرة ليعود حول منتصف الليل فيدخل بمفتاح خاص أعطته به مدام فوكير دون غيره من النزلاء . فهو الوحيد من بينهم الذى ينبسط معها ويداعبها ويناديها يا أماه ويحيط خصرها الضخم بذراعه . وكانت العجوز تظن هذا شيئاً يسيراً على أى انسان ولكن فوتران دون سواه هو الذى يفكر فيه . مع أن الواقع أن فوتران العملاق وحده هو الذى يستطيع أن يقوم بهذا العمل لطول ذراعيه . وهو ينفرد بميزة أخرى هى بذله خمسة عشر فرنكا كل شهر نظير القهوة وكأس الكونياك اللتين يتناولهما يومياً بعد العشاء . وفى بعض الأحيان كان يطلق لسانه العنان فيكشف عن جانب الأوضاع المقلوبة فى الدولة والمجتمع فى أسلوب ساخر لاذع ينبى عن حقد لديه دفين على الدولة وعن سر لديه مكنون يحز فى نفسه وإن كان يطويه ويحرص على إخفائه

ولما كان الجمال والقوة هما أشد مايجتذب التفات المرأة ، فلا عجب أن نجد فيكتورين تايفير تقسم نظراتها الخجلة وخواطرها الخفية بين هذا الكهل العملاق وذلك الشاب الريفى النبيل . فهى مشغولة بالقوة والجمال ولكن لم يكن فيها ما يلفت صاحب القوة أو صاحب الجمال ، مع أن مفاجأة من مفاجآت القدر كفيلة أن تبدل حالها بين عشية وضحاها فتجعل منها قنيصة ترنو اليها الأبصار طمعاً فى ثرائها العريض . ولكن القاعدة الثابتة ان كل نزيل كان لايعير قصة سائر النزلاء نفسه كاملة ، لأنه لا يهمه إلا مشاكله الخاصة ومتاعبه الشخصية

مجموعة من المثقلين بأعباء الحياة ونوازلها ، لم يكن فيهم شخص قرير العين بوجوده في ذلك الخان إلا صاحبته مدام فوكير ، فهي ترى فيه مملكتها الخاصة ، ولا تبصر فيه عيباً ، كأنها الأم التي ترى وليدها أوسم خلق الله وإن كان اتصافه بالجمال ضربا من ضروب المحال

وإن أتعس المنازل وأحفل المجتمعات بالأسى والشقاء لاتعدم فرداً منها يكون أضحوكة لسائر الجماعة . ولم يكن خان فوكير بالشاذ في هذه القاعدة . وكان أضحوكته للمتمردة المتسلطة هو ذلك الشيخ الهادىء الفاني الذي ألف الجميع أن يدعوه « الأب جوريو »



شيخ فى السبعين

والاب جوريو شيخ ناهز الستة والستين من عمره ، اعتكف فى خان فوكير منذ سبع سنين أى منذ سنة ١٨١٣ بعد أن صفى أعماله واعتزل التجارة . وقد شغل أول ما شغل ذلك الجناح الذى تشغله الآن مدام كوتير وربيبتها فيكتورين ، وكان يدفع لصاحبة الخان مائة فرنك عن كل شهر ، فقد كان يبدو فى مظهر الرجل الذى لا يدقق فيما ينفقه من مال لأنه تعود البسط فى النفقة ولأن راحته الشخصية أعز عليه من درهم يدخره أو درهمين . وقد رأت فيه مدام فوكير فى ذلك الوقت رجلا ساذجاً يسهل استغلال طيبته ــ والطيبة هنا معنى من معانى النفقة

وقد حمل جوريو معه حين نزل بالخان عدداً وفيراً من الملابس الثمينة من مختلف الأنواع تظهره بمظهر الرجل الميسور الذى لا يضن على نفسه بشىء من متاع الحياة ومناعمها من أغلى حانوته . وقد راق مدام فوكير فى هذا الجهاز الفاخر ثمانية عشر قميصاً من الحرير الرقيق تزينها حين يلبسها تلك الدبابيس الماسية الكبيرة الحجم . وكان الأب جوريو فى ذلك العهد لا يلبس الصدار الأبيض إلا مرة واحدة يبدو به مختالا تتراقص فوقه سلسلة غليظة من الذهب فوق بطن مكورة تتقدمه فى مهابة وهو ينقل خطوه بخيلاء . وفى جيب الصدار علبة نشوق من الذهب الخالص بداخلها خصلة من الشعر تنمى بمغامرات عاطفية تعلق بمظهره الوقور . فإذا ألمحت مدام فوكير فى مواجهته الى أنه رجل ذو صبوات ابتسم ابتسامة ماكرة تنم عن شعوره بالزهو لهذا الاطراء الذى يرضى كبرياءه

أما صوانات جناحه فقد حفلت بتلك التحف الفضية النادرة التى كانت يوماً زينة بيته الكبير قبل أن تموت زوجته وتتزوج بنتاه ويصبح البيت غير ذى موضوع . وهى أوان ثمينة كانت صاحبة الخان ترمقها بعينين تقدحان بالشرر حين تساعده على ترتيبها وتنظيفها وكان يعتز بها لأنها التذكار الأخير لسعادته المنزلية الغابرة . وقد احتضن ذات يوم أمامها طبقاً ووعاء له غطاء تعلوه حمامتان تتبادلان القبلات ، صنعا من الفضة المذهبة وقال لها بتأثر بالغ :

ــ هذه هى الهدية الأولى التى قدمتها لى زوجتى فى عيد زواجنا الأول . غفر الله لها ، فما كان أطيب قلبها ، وكم من أشياء حرمت نفسها منها لكى تدخر ثمنها ، وهى بعد فى عهد عفرتها . فلا تعجبى ياسيدتى إذا قلت لك إننى أفضل أن أحفر الأرض بأظافرى التماساً للقوت على أن أفرط فى هذه الهدية . وإنى لأحمد الله أن أتاح لى احتساء قهوتى كل صباح فى هذا الوعاء الأنيق الذى يصلنى بالماضى السعيد

وكان جورجو إذ ذاك بادى الصحة متين التركيب رغم تقدمه فى السن ، يقبل على الطعام ويكثر من التدخين بطريقة تباعد بينه وبين الكزازة والتقتير وتزيد صفة اليسر التصاقاً به حتى باتت «مدام» فوكير تتقلب على فراش السهد طامعة أن تخلع عنها اسم فوكير لتولد وهى فى سنها هذه باسم جوريو

— آه ما أحلى أن أتزوج وأبيع الخان وأغدو سيدة معتبرة فى الحى ، أنسقط أخبار الموزين ، وأسدى يد المعونة الى المحتاجين ، وأقيم المآدب الأنيقة يوم الأحد ، وأذهب الى ملعب التمثيل على هواى فى مقصورة خاصة دون أن أنتظر التذاكر المجانية التى يجود بها أحياناً نزلاء الخان

ولم يكن أحد يعلم أنها تدخر أربعين ألف فرنك جمتها درهماً بدرهم وفلساً بفلس ولكنها لا تنفل هذه المزية حين تحلم بهنا الزواج ، فترى نفسها أهلا له بفضل هذه البائنة الضخمة ، ثم تتحسس راضية مواضع جسمها المكتنز كأنما تستوثق من آيات الاطراء التى تزفها اليها طباختها البدينة « سيلفى »

ولقد ظلت مدام فوكير طيلة الأشهر الثلاثة الأولى تستخدم الحلاق الذى يأتى خصيصاً للأب جوريو فى تزيين شعرها ، بل اجتهدت فى رفع مستوى نزلائها مرددة على الدوام أن خانها مؤسسة محترمة لا ينزل بها إلا الناس المعتبرون وأفاضل القوم من الجنسين . فاذا تقدم اليها أحد برغبة الاقامة عندها بدأت بالتدليل على ابهة منزلها بأن السيد جوريو المحترم وهو من كبار التجار ورجال الأعمال السابقين قد فضله بخبرته الواسعة على جميع ما عداه من خانات عاصمة النور

ولقد أجدى هذا النهج الجديد عليها فنزلت عندها الكونتس دى لامبرمسنيل ، وهى عقيلة فى السادسة والثلاثين من عمرها جاءت الى باريس لاتمام تسوية المعاش المستحق لها بصفتها أرملة جنرال مات فى « ميادين » القتال . وقد قدرت مدام فوكير هذا الشرف الذى أتيح لها حق قدره فبذلت من جيبها تكاليف مائدة محترمة وخدمة ممتازة ستة أشهر طوال ليكون المكان على قدر المقام ، متفانية فى إظهار عرفانها لجميل تلك السيدة العالية القدر التى تتلطف فتدعوها « صديقتى العزيزة » والتى تفضلت فقدمتها الى صديقتين جاءتا لزيارتها إحداهما بارونة والأخرى زوجة كولونيل . فلما ارتفعت الكلفة أفضت مدام فوكير بمكنون رغبتها الى الكونتس ، فقالت لها الكونتس :

— إنه رجل محترم وفى صحة جيدة ولا زالت فيه بقية صالحة تقر بها المرأة عيناً . ولكنى أرى أن تتبرى من زينتك لكى تكونى أرعى لنظره وأندى على قلبه

وبعد أخذ ورد صحبت الكونتس مدام فوكير فانتقت لها قبعة ذات ريش ووشاحاً جميلا وثوباً من آخر طراز . فلما أخذت مدام فوكير زخرفها وازينت راقت فى عين نفسها وتوجهت

إلى الكونتس ترجوها أن تتوسط بينها وبين جوريو ، فقبلت عن طيب خاطر

وخلت الكونتس بجوريو خلوة هدفت منها إلى كسبها لنفسها وأغوائه لحسابها . فلما رأت منه صدوداً جرح كبرياءها خرجت على مدام فوكير بوجه يحمل أمارات السخط والتأفف !

— لا جدوى من مثل هـذا الرجل فهو نفور شحيح له على أمواله علل ، وفيه غباء وتنطع ، ولن تأتيك منه إلا الهموم والمتاعب

ويبدو أن ما جرى بين جوريو والكونتس كان من الحرج بحيث لم تطق البقاء بعد ذلك معه تحت سقف واحد ، فغادرت الخان في اليوم التالي ، ولكنها نسيت قبل أن تغادره أن تدفع أجر إقامتها ستة أشهر ، تاركة وراءها ملابس عتيقة لا تزيد قيمتها على خمسة فرنكات!

وشكت مدام فوكير وبكت ولكنها عبثاً بحثت عمن يدفها في طول باريس وعرضها على كونتس تحمل هذا الاسم مات عنها زوجها الجنرال صريعاً في «ميادين» الشرف ...

ولم تكن مدام فوكير سوى امرأة ضيقة الأفق لا تحسن تقصى الأسباب فيا يلم بها من أمور ولا تربط بين العلل والنتائج ، فكل اهتمامها منصب على الحوادث ذاتها دون نظر الى مصادرها ومسبباتها . ولديها من حب الذات حباً أعمى يتميز به الجهلاء ما يجعلها تحمل الآخرين وزر ما تقع فيه من إخفاء . فغير غريب إذن حين منيت بهذه الخسارة أن نراها لا تعزوها إلى غفلتها وقصر نظرها بعواقب الأمور ، بل تحملها على كاهل التاجر المتقاعد الطيب القلب جوريو فحقدت عليه حقداً شديداً ولا سيا لأن آمالها فيه قد خابت ، وقد كانت لعمر الحق آمالا كباراً هونت عليها أن تنفق ما أنفقت في زينتها وأناقة مائدتها ومائدته تلك النفقات التى ذهبت أدراج الرياح. بل إنها مضت في حقدها عليه وكراهيتها له شوطاً أبعد مما ذهبت إليه في حبها السابق الخائب . فحقدها لم يكن مبعثه فشل حبها بل إخفاق آمالها النفعية . ولأنها امرأة نفعية فقد تعين عليها أن تكتم عواطفها لأن الرجل نزيلها وهى لا تحب أن تضحى بما تجنيه من ورائه . ولكن صغار النفوس لا تعدم أبداً وسيلة للاساءة إلى من يضمرون لهم الكيد، فبدأت بالغاء النوافل المرفهة التى كانت قد أضافتها الى المائدة من أنواع المشهيات . ولكن الأب جوريو كان رجلا متقشفاً خشوشنا لا يأبه للمتاعب في طعامه . فحسبه من زاد خبز زاد ضيق من الحساء وشيء من اللحم المسلوق وجانب من الخضر . لهذا تعذر على مدام فوكير أن تضايقه من جهة بطنه . فعمدت إلى التنديد به من ورائه والتغامز والتهامس عليه والايعاز إلى سائر نزلائها أن يتخذوه موضوعاً لفكاهاتهم وسخريتهم . ولقد وجدوا في هذا ما يسليهم فأقبلوا عليه عن طيب خاطر

وبعد انقضاء العام الأول تغيرت عادات جوريو الميلا ، فبعد إن كان يتغدى أو يتعشى في الخارج مرتين في الأسبوع أصبح لا يفعل ذلك إلا مرتين في الشهر فزادت فرص تحملها لوجوده معها على المائدة فلم تحمل هذا الحدث على قلة إيراده عن ذى قبل بل خطر لها أنه إنما تعمدهما ليكيد لها ويضنيها!

حتى إذا انصرم العام الثانى طلب إليهـا أن ينقل إقامته إلى الطابق الثانى لكى يهبط بأجر اقامته من مائة فرنك إلى خمسة وسبعين لأنه مضطر الى الاقلال من نفقاته ، فطالبته المرأة بأجر العام مقدماً فقبل الرجل هذا الشرط

ومنذ ذلك اليوم تغير اسمه لديها من السيد جوريو إلى الأب جوريو

وكان فى مقدور أى انسان يلحظ هذا الهبوط فى مستوى معيشته ، ولكن الحقيقة لم تكن فى مثل هذه السهولة تقصياً ووضوحاً . فالأب جوريو رجل كتوم لا يسهل استكناه أسراره . لهذا تضاربت الآراء حول أسباب سوء حاله بعد يسره الأول . فهذا فوتران السلاق الذى جاء الى الخان فى هذه الفترة يزعم أن الأب جوريو يتردد على مصفق النقود ويدخل فى مضاربات طمعاً فى استرداد بعض ما فقده من الخسائر التى أدت به الى الافلاس . وزعم غيره من النزلاء أنه مبتلى بداء القمار . وزعم ثالث أنه عين من عيون البوليس السرى . وتوهم غيرهم أنه بخيل يقرض المضطرين بربا فاحش . وهو على أى فرض من هذه الفروض ليست له فى نظرهم صورة مشرقة ، وإنما هو مجموعة من الرذائل والعار والضعف . ولكنهم كانوا يقبلونه على علاته لانه مسالم ولأنه هدف صالح لنكاتهم إذا ضاقت صدورهم بهموم الحياة

بيد أن أجدر صورة خلفها أحد للأب جوريو بالتشويه هى التى توهمتها مدام فوكير . فهو فى زعمها ــ بل فى يقينها ــ رجل ذو ثروة وقوة ولكنه اباحى ماجن له نزوات تتسم بالشذوذ . ولم تكن تعوزها الأسباب التى تبنى عليها هذا الاعتقاد :

فقبل رحيل الكونتس ببضعة أشهر نما الى سمع مدام فوكير فى بكرة الصباح وهى بعد فى فراشها حفيف ثوب حريرى يجرر أذياله فوق درج الدار ووقع خطى امرأة شابة تتسلل الى غرفة جوريو التى كان بابها مواربا عن عمد ولا شك . وما لبثت الطباخة السمينة « سيلفى » أن دخلت عليها بالنبأ اليقين : فهذه فتاة أبهى من أن تكون شريفة ، عليهـا ثياب كثياب الالهات الأساطير ، تدلف إلى المطبخ وتسألها عن جناح السيد جوريو ... فصعدت مدام فوكير وطباختها على الأثر الى استراق السمع ، فتسقطتا بضع كلمات من التودد والملاطفة من هذا الجانب وذاك ، فى تلك الزيارة التى دامت بعض الوقت . فلمـا هبط السيد جوريو لوداع زائرته ، تناولت « سيلفى » سلتها وتصنعت الذهاب إلى السوق لكى تتعقب العاشقين ، وقالت لسيدتها عند عودتها :

ــ لابد أن السيد جوريو على جانب من الثراء عظيم ، حتى يكون فى مقدوره أن يعول صاحباته فى هذا المستوى .. تصورى ياسيدتى أن عربة من أفخم العربات الخصوصية كانت فى انتظارها عند رأس الشارع .. فصعدت اليها

فلما كان الغداء ، قامت مدام فوكير بنفسها فأسدلت من تلقاء نفسها الستار على النافذة ، لأن الشمس كانت تقع أشعتها على عين جوريو ! ثم قالت له فى مودة ظاهرية :

فولك وايم الحق لرائع ، فما كان أبهاها !

فأجابها بزهو خاله الزلاء عموها لتغطية موقفه :

— انها ابنتي ...

وبعد شهر من هـــذه الزيارة حظي بزيارة أخرى بعد الظهر ، بملابس الخروج ، فظنتها الطباخة امرأة أخرى . واستطاع النزلاء هذه المرة أن يتأملوها ، فاذا هي شقراء مليحة رشيقة، أوسم من أن تعد ابنة لمثل جوريو

وبعد بضعة أيام جاءت فتاة أخرى ، طويلة ، جميلة سمراء ، سوداء الشعر نافذة النظرة ، وسألت من السيد جوريو ، فقالت « سيلفى » :

— وهذه ثالثة . . .

فلما عادت بعد أيام في المساء بملابس السهرة الكبرى، لم تعرفها الطباخة، فقالت مع سيدتها:

— وهذه رابعة ...

وكان جوريو في هذه الفترة لايزال يدفع مائة فرنك شهريا كراء لاقامته بالخان. فكانت مدام فوكير لاترى مايستدعي الغرابة أن يوسع رجل موسر على نفسه ، وأن تكون له أربع عشيقات من الصبايا أو خمس ، وكانت تعجب بلباقته إذ يزعمهن بناته . ولكنها وجدت في هذه الظاهرة تعليلا يرضيها لانصراف جوريو عنها رغم توددها اليه ، بيد أنها لم تستطع اغضابه ، ولم تتأفف من زيارة صاحباته له في الخان . حتى إذا هبط بالكراء إلى خمسة وسبعين فرنكا نفرتها النبرة على سمعة الدار ، وواجهته بالتقريع عندما رأت احداهن تهبط من حجرته ، فقال لها الشيخ :

— هذه ابنتي الكبرى

— بنتك ؟ وهل لك ست وثلاثون بنتاً يارجل !

— بل اثنتان فقط

... فلما انتهى العام الثالث ، صعد جوريو طابقاً آخر فسكن الطابق الثالث ، هابطاً بالكراء إلى خمسة وأربعين فرنكاً في الشهر ، وأقلع عن التدخين ، وقطع راتب الحلاق مستغنياً عن تصفيف شعره وصباغته ، فبدا زرى الهيئة . فلم يعد لدى مدام فوكير شك في أمره : انه شيخ حطمته الرذائل ، ولم تعد في عينيه قدرة على مقاومة آثار قسوته لولا العقاقير التي يعالجهما بها الطبيب ، وأما لون شعره الحائل الضارب إلى الخضرة فيرجع إلى افراط الشيخ في الشهوات ، وإلى المقويات الكيميائية التي يثابر على تعاطيها ليستعين بها على ذلك الافراط

والحق أن هيئة الرجل وحالته النفسية والجسدية كانتا تبرران هذا الاعتقاد . فهو ينحدر من سيء إلى أسوأ . وملابسه تبلى ولا يبدلها ، وماسماته الباهتة وسلسلته الباطلة اختفت كلها تماما . وتدهورت صحته تدهوراً فظيعاً ، فبعد أن كان يبدو في الأربعين وهو في الثانية والستين

صار يبدو في السجن على أثال تقدير بعد أن ذهبت عنه آخر آثار تلك النضرة التي كان يتميز بها وجهه ، وخبا ضياء عينيه حتى حال لونهما من الزرقة إلى الخضرة الباهتة ، واحمرت جفونه حتى غدا يثير الشفقة إذا لم يثر الاشمئزاز

وذات يوم انتهزت مدام فوكير الفرصة ، وقالت له في قالب الدعابة :

— أرى بناتك قد اعتضن عن زيارتك هذه الأيام

فانتفض الرجل كمن أصابته طعنة سيف ، وقال بصوت مختلج :

— بل يأتين في بعض الأحيان

فصاح النزلاء من الطلبة ضاحكين :

— ألا زلت تستطيع رؤيتهن من حين إلى حين ؟ مرحى مرحى أيها الشيخ !

ولكن الشيخ لم يسمع ماقالوا ، لأنه عاد إلى أحلام اليقظة التي يعيش فيها ، فيحسبها من يراه حالة من حالات البلاهة ... فما من أحد كان يصدق أن هؤلاء الفتيات بناته ... بل كانوا جميعاً على رأي مدام فوكير في أنه لو كانت له بنات على هذا الثراء الذي بدين به في زياراتهن السابقة له ، لما اضطر إلى البقاء في هذا الخان على هذا الوجه الزرى ، وبهذه الملابس الخلقة

وكيف كان يمكن التحقق من كنه هذا الشيخ ؟ ان المسنين من النزلاء لايغادرون الخان ولا الحي ، فهم فيه كالمحارات في أصدافها . والشبان منهم ينسون الخان ومن فيه — بما فيهم جوريو — متى خرجوا إلى أفق باريس الرحيب.. فلم يعن أحد بالسؤال ، ولو سألوا لعرفوا في يسر أن جوريو كان من تجار الدقيق وصناع الاطرية (الشعيرية) الكبار ، وأنه جمع ثروة طائلة ، وأن له بنتين حقاً من أعلى السيدات في باريس مكاناً وأعظمهن جاهاً

وعلى هذه الحال ، حلت سنة ١٨١٩ وقد قر في الأذهان أبعد الأوهام عن الحق في شأن هذا الشيخ المسكين ، فهو عند الكافة لم تكن له زوجة ولا ولد ، وإنما هو عزب حطمته الشهوات وعاقبه الله على الفسق والمجون بسوء الحال والمآل ...



ليلة المرقص

سلخ ايجين دي راستنياك عامه الأول في باريس كما ينتظر من شاب ريفي مثله أطلق له العنان في عاصمة النور ، فالدراسة لا تقتطع من وقته شيئاً كثيراً لأنها في الغالب مداخل ولمع تمهيدية لعلم القانون ، فأمامه متسع من الوقت تتزاحم عليه الشواغل إذا أراد أن يعرف جميع وجوه الحياة في العاصمة فيزور مسارحها وملاهيها ويطوف بمتاحفها ومعاهد الفن فيها ويتعرف الى لغة الدهماء وتقاليد العلية

وهكذا بدأ ايجين بالاعجاب بالعربات الفاخرة التي تترى أمام عينيه في الشانزليزيه ، ولكن الاعجاب ـ اعجاب المحروم ـ انتهى الى نتيجته الطبيعية وهي الغبطة والتجني والحسد

فلما عاد بعد هذه السنة الأولى الى قريته كان قد بلغ هذه المرحلة الأخيرة ، مرحلة التجني والحسد والتعلق بمظاهر الترف والأبهة ، وقد فارقته سذاجة الريف وبساطته وقناعته ، وصار يضيق بالعيش الضنك الذي تعيشه أسرته على غلة أرض لا تزيد على ثلاثة آلاف فرنك سنوياً .

وكان يشعر أن مستقبل أسرته الكبيرة ذات الاسم النبيل والدخل الضئيل متعلق بمستقبله الشخصي الى حد كبير . وكان هذا مضافاً الى تفاصيل كثيرة من دلائل الضيق المالي كشف لعينيه عنها القناع بعد تلك السنة التي خبر فيها الحياة في باريس ـ كانت هذه الدلائل دافعاً إضافياً له على الاعتقاد بأن أمامه أمراً واحداً لا محيص له عنه : هو النجاح الباهر السريع في الحصول على مركز ممتاز وجاه واسع ، حتى غدا الشاب الريفي شعلة متقدة من الطموح

وكان الفتى كـكل ذي نفس كبيرة لا يريد أن يدين بنجاحه لشيء عدا همته ومواهبه . بيد أنه تعلم من السنة التي قضاها في باريس أن المواهب وحدها لا تذهب بصاحبها بعيداً في مضمار النجاح الاجتماعي . وتعلم أيضاً مبلغ ما للمرأة من النفوذ والتأثير في ذلك المضمار ، فعزم على التزود لنفسه بسند نسوي يعتد به في ذلك الكفاح الذي انتواه

وكان للفتى عمة هي مدام دي مارسياك كانت لها فيما مضى في البلاط قدم وعرفت هناك أعظم الرؤوس وأعرق الأنساب . فاتجه الى تلك العمة يسألها المعونة . فنثرت كنانتها من المعارف بين سيدات العاصمة وعجمت أعوادها عوداً عوداً فاستقر رأيها على أن أنفع هاتيك السيدات لابن أخيها هي الحسيبة النسيبة « فيكونتس دي بوسيان » فحملته اليها خطاباً على الطريقة القديمة توصيها به وتطلب اليها أن تدفع بالفتى في مراقي الحياة الارستقراطية الاجتماعية

فلما آب الى باريس في مفتتح العام الدراسي التالي بادر بارسال الخطاب الى الفيكونتس

فجاءه جوابها على صورة دعوة الى حفلة راقصة بقصرها في الليلة التالية ، وكان ذلك في أواخر نوفمبر من سنة ١٨١٩



وفي تلك الليلة أقبل الشاب الى خان فوكير في الساعة الثانية صباحا ، وكان قد عاهد نفسه وهو في نشوة الرقص أن يعوض هذا الوقت الضائع في اللهو باحياء الليلة ساهراً الى الصباح ليستذكر ما فاته من دروسه ، فلما بلغ حجرته نضا ملابسه وأوقد النار ليستدفىء واستعد للاقبال على كتبه وقد زودته بهجة اللهو والزهو بدفعة من النشاط ، ولكنه واجه الكتاب المفتوح بنظر شارد لأن أحلاما من نوع آخر كانت قد استأثرت بلبه رغم أنفه .. فقد أدرك من هذا الرقص الحافل أن الفيكونتس بوسيان ملكة من ملكات المجتمع الباريسي وأن دارها من أفخم الدور في حي سان جيرمان ، وأنها باعتبار اسمها وثروتها من أبرز شخصيات الأوساط الارستقراطية .. فأي حظ مواتٍ قد أتاح له وهو الفتى الريفي الفقير أن تفتح أمامه أبواب هذا القصر الكبير وأن يستقبل فيه بالعطف والتقدير ؟ وأنه ليوقن أن هذه الدعوة تعد تكريما ضخماً لمثله فالدخول الى صالونات ذلك القصر المذهبة شرف عظيم لا يناله إلا الأكفاء لمعاشرة النبلاء .. وهو يدري أيضاً أن قبوله في ذلك القصر هو بمثابة تصريح نافذ بالمرور من جميع الأبواب والدخول الى أرقى البيوتات في الوسط العالي من العاصمة الفرنسية

والحق أن الفتى قد بهر بما رأى فلم يكد يبادل الفيكونتس بضع عبارات حتى وجد نفسه غريقــاً في خضم من الفاتنات الساحرات ، ولم يلبث أن ميز من بينهن شابة فينانة تكفي النظرة الأولى اليها لالقاء أي شاب صريعاً تحت قدميها ، وتلك هي الكونتس « انستازي دي ريستو » التي كانت معروفة بأنها صاحبة أجمل طلعة في باريس ، فهي طويلة القامة حلوة القسمات رشيقة الحركة ، لها عينان سوداوان كبيرتان ، ويد جميلة ، وقدم صغيرة وإذا تحركت خلتها تتوقد بنار حامية من فرط الحيوية .. وهي الى هذا عبلة لا عيب في تكوين جارحة من جوارحها وليس في امتلائها ما يوحي باتهامها بالبدانة أو الثقل ، وكانت هذه الصورة هي الحلم الذهبي الذي طالما داعب خيال الفتى جيراستنياك .. وقد احتال حتى سجل اسمه مرتين في قائمة مراقصيها واستطاع أن يبادلها بضع كلمات خلال الرقصة الأولى :

— أين ترى يتاح لي أن أراك ثانية يا سيدتي ؟

— في أي مكان ، في الغابة ، أو في المسرح أو في بيتي

واجتهد الفتى بعد ذلك أن يتقرب إليها بقدر الامكان ، فلما قال لها إنه من أبناء عمومة الفيكونتس دي بوسيان وجد لديها استعدادا يقرب من التهافت لدعوته لزيارتها ، وكانت ابتساماتها ساعة افتراقهما من الرقة والظرف بحيث اعتقد الفتى أن تلك الزيارة أضحت من الوجهة الاجتماعية حتما لزاما



« ووضع عينه على ثقب المفتاح ودقق النظر في الغرفة »

ويمكننا ان نتصور مبلغ الفرحة الطاغية التي استولت على الفتى الذى حلق من الأحلام فى ليلة واحدة فوق ما كان يتمناه فى عام : فقد فتح له بيتان من ارفع بيوت باريس عماداً ، والبقية بعد هذا آتية لا ريب فيها ، ثم هو قد لقى فاتنة أحلامه وحظى منها بما يعلى له فى حبال الآمال فأخذ يتخيل المشاهد بعد المشاهد من مستقبله السعيد حتى نبهته من هذه الأحلام المسولة آهة حرى كآهات محكوم عليه بحمل عبء لا طاقة له به ، آهة سرت فى صمت الليل الساجى فكان لها فى حنايا الفتى الحالم بالسعادة والحب صدى هائل حتى لقد خالها حشرجة النزع من رجل يحتضر .. ففتح الباب برفق ، فرأى فى الدهليز خيطاً من النور ينساب من تحت باب الأب جوريو .. وخشى الفتى أن يكون جاره الشيخ قد حلت عليه علة طارئة فوضع عينه على ثقب المفتاح ودقق النظر فى الغرفة ، فرأى ــ ويا هول ما رأى ! رأى الرجل الشيخ الذى خشى عليه المرض منصرفاً إلى عمل اجرامى من واجب نحو المجتمع أن يتقصى حقيقته .. رأى الشيخ جوريو منصرفاً الى الضغط بكل قوته على فنجان ووعاء من الفضة المذهبة منقوشين نقشا فاخراً محاولا أن يجعل منهما سبيكة لا تتميز لها صورة أو نقش .. فلما رأى الفتى ذراعى الشيخ ترتجفان من شدة الضغط قال فى نفسه :

ــ انه لص ولا ريب أو هو ضالع مع اللصوص لتصريف ما يسرقون .. أتراه لهذا يتصنع الفقر والبلاهة حتى يخفى عن الناس حقيقته ؟

وعاد الفتى الى ثقب الباب يدقق منه النظر مرة أخرى فاذا الشيخ قد وصل الى مرحلة دحرجة السبيكة فوق المائدة لكى يجعل منها قضيباً مستديراً .. وراعه أن الشيخ الفانى لا يجد مشقة كبيرة فى هذا العمل ، فهتف الفتى فى عجب شديد وقد رأى نجاح جوريو فى تشكيل القضيب :

ــ انه فى قوة أوغسطس ملك بولندا . .

ولكن أدهشه أكثر من هذا الذى رأى من دلائل قوة الشيخ أنه أخذ يتأمل نتيجة عمله بدموع مدرارة تسيل على خديه ! ثم نفخ الشمعة وسمعه اوجين يئن أنينا شديداً وهو يستلقى على فراشه ثم يهتف بصوت مختلج أجش مسموع :

ــ يا الطفلة المسكينة

فسبق الى وهم الشاب أن بالرجل مساً ، وآثر أن يكتم ما رأى بعض الوقت حتى يتحرى الحقيقة ولا يتعجل التشهير بجاره المسكين ..

وتأهب الشاب للعودة الى غرفته بيد أنه سمع على حين غرة صوتاً غامضاً يشبه خفق الخفاف صاعدة الدرج ، فأرهف أذنيه وتبين بالفعل صوت أنفاس رجلين ، فعجب كثيراً أنه لم يسمع صوت فتح الباب الكبير ولأنه يعلم أن الخادم كريستوف أحكم اغلاق الباب بالمزلاج على أثر حضوره ، ثم رأى فى الحال ضوءاً فى الدور الثانى فى حجرة فوتران فهبط بضع درجات واسترق السمع وطرق أذنيه رنين نقود ، ثم انطفىء النور وسمع الأنفاس تتردد فى الظلام مرة أخرى

هاجلة الدرج ، وفتحت مدام فوكير نافذة مخدعها وصاحت :

— من هناك ؟

فأجابها فوتران بصوته العميق :

— هذا أنا عائداً من الخارج ياماما فوكير ..

وهز الفتى رأسه وقال لنفسه :

— كم في جوف الليل من أعاجيب ! حقاً أنه ينبغي على المرء أن يفتح عينيه جيداً ليعرف ما يدور في بلد عظيمة مثل باريس أسرارها أكثر بكثير من ظاهر أمرها

وهكذا سلبت أحلام السعادة التي ألهمته إياها مدام ديرستو ثم سلب الشيخ جوريو بأناته وعجيب تصرفاته وسلبت الأصوات الخفية في ظلام المكان ما كان يدخره الفتى لتحصيل مواد القانون في ليلته النابغية ، فأوى الى فراشه متعب الأعصاب ونام نوماً عميقاً دون أن يقرأ حرفاً واحداً . . . .



أخبار وأسرار

وفى الصباح التالى كانت باريس تلفها عباءة كثيفة من الضباب الذى يهبط عليها أثناء الليل فى بعض الأحايين حتى تسودها عند الصبح ظلمة حالكة يضل فيها أكثر الناس خبرة بمعالم الطريق ، ويتأخر فيها أشد الناس تدقيقاً من مواعيد أعمالهم ، فانه يظن أن الساعة الثامنة من الصباح حين تكون فى الواقع قد آذنت بالظهيرة

لهذا كانت الساعة قد بلغت منتصف العاشرة ولم تكن مدام فوكير قد غادرت فراشها .

وكان الخادم كريستوف والطباخة البدينة سيلى وقد هبا من نومهما متأخرين عن مألوف عادتهما جالسين يتناولان قهوة الصباح وعليها طبقة سميكة من القشدة التى اختلساها من اللبن المعد لتقديم للنزلاء بعد أن أسرفا فى غليه بعد ذلك حتى لا تكتشف مدام فوكير أمر ذلك الاختلاس

وقال كريستوف وهو يغمس لقمته الأولى فى قدح القهوة :

— سيلى . لقد حضر رجلان الليلة للاجتماع بالسيد فوتران مرة أخرى ، فاذا سألتك سيدتنا تجاهلى كل شىء . فهو رجل لا بأس به

— وهل أعطاك شيئاً ؟

— أعطانى أول الشهر مائة سنتيم ، وهى قحة تحمل فى طواياها المقصود منها ، وهو الكتمان

— إنه ومدام كوتير هما اللذان لا يدققان ولا يبذلان لنا ، ولكن الباقين يودون لو استردوا باليسار ما يعطوننا باليمين

— وماذا يعطوننا ؟ شيئاً لا يسمن ولا يغنى من جوع ! فالأب جوريو أخذ يطلى حذاءه بنفسه طيلة العامين الماضيين . وهو على كل حال خير من بواربه القذر الذى لا يطليهما على الاطلاق ، فهو يتمنى لو تناول سائل الدهان بدل أن يطلى به جلد حذائه المتشقق ، وأما الطالب الريفى فيعطينى أربعين سنتيما لا تكفى لما يستهلك على طلاء حذائه من الفرش ، ثم هو يبيع ملابسه القديمة

— رباه . الساعة قد بلغت العاشرة إلا ربعاً ، فها هى ساعة الكنيسة تدق

— وما الضير ؟ لقد خرج النزلاء جميعاً . أما مدام كوتير وربيبتها فقد مضتا الى الكنيسة لحضور قداس الساعة الثامنة فى بيعة القديس ابتيان . وأما الأب جوريو فخرج متأبطاً شيئاً فى لفافة . وأما الطالب فلا يعود إلا عند انتهاء محاضرته بعد العاشرة . وقد رأيتهم جميعاً يخرجون

وأنا أكنس السلم ، ولقد أصابني الأب جوريو بصـدمة شديدة بالذي كان يحمله ، فهو شيء صلب كالحديد . يا الرجل المسكين ، فهم لا يتركونه في سلام مع أنه خير منهم كلهم مجتمعين . وهو إذا كان لا يعطيني شخصياً شيئاً ذا بال ، فالسيدات اللاتي يعتني اليهن على جانب كبير من الوجاهة ويمنحنني هبات كبيرة

— أتعني أولئك اللواتي يزعمهن بناته ؟ إن له منهن حفنة كبيرة

— إني لم أذهب أبداً سوى الى اثنتين ها بينهما اللتان تأتيان الى هنا

. — هذه سيدتنا تتقلب في فراشها ، وستقيم الدنيا وتقعدها فمن الخير أن أذهب اليها ، خذ بالك من اللبن واحذر أن تعبث به الهرة

وصعدت سيلفي الى سيدتها التي ابتدرتها بقولها :

— ما هذا يا سيلفي ؟ العاشرة إلا ربعاً ؟ كيف تركتني أنام الى هذه الساعة ؟ إن هذا لم يحدث لي من قبل . أعطني الشد واذهبي بسرعة لاعداد الافطار

وإن هي إلا بضع دقائق حتى هبطت مدام فوكير الدرج لتجد الهرة قد انهمكت في لعق اللبن من بعض الآنية بكل همة ونشاط ، فصاحت بها :

— ميستيجريس !

فهربت القطة ولكن لتعود بعد لحظة فتتمسح بساق سيدتها التي نادت سيلفي وقالت لها :

— انظري ماذا فعلت القطة ؟

— لا تجزعي يا سيدتي ، فسنصنع من هذا اللبن قهوة للأب جوريو وسأعوض ما نقص من اللبن بالماء القراح ، وثقي أنه لن يلحظ الفرق لأنه لا ينتبه الى شيء أبداً حتى ولا الى ما يأكل

وفي هذه اللحظة سمع جرس الباب ودخل فوتران القاعة متغنياً بصوته العريض العالي بأغنية شعبية ، أنهاها ليبتدر صاحبة الخان بقوله :

— عمي صباحاً يا ماما فوكير

ثم طوقها بذراعيه ، وأخذ يساعدها في إعداد المائدة وهو يوجه اليها الدعابات المرحة . . ثم صاح فجأة :

— لقد رأيت اليوم شيئاً عجباً

— وما هذا ؟

— رأيت الأب جوريو في شارع ولية العهد في منتصف التاسعة هذا الصباح عند دكان صائغ ممن يشترون الفضيات القديمة ، فوقفت أنتظر ماذا عساه يصنع فإذا هو يتجه بعد ذلك الى منزل مراب مشهور اسمه كوبسك من أخس المرابين اليهود ، لا يعجزه أن يبيع عظام أبيه اذا وجد في هذا نفعا يعود عليه من وراء ذلك

— وماذا عسى الأب جوريو أن يفعل عنده ؟

— لا شيء طبعا سوى أن يحاول إصلاح ما تورط فيه من خراب وإفلاس وديون بسبب تهافته على هاتيك الفتيات . . .

وفى هذه اللحظة صاحت سيلفى :

— هذا هو

وسمع الأب جوريو يصيح :

— تعال يا كريستوف معى الى فوق

وتبع كريستوف الأب جوريو ولكنه لم يلبث أن هبط وحده فسألته سيدته :

— الى أين يا كريستوف ؟

— فى حاجة السيد جوريو

فانتزع فوترān من يده مظروفا كان فيها وقرأ العنوان بصوت عال :

— الى الكونتس اناستازى دى ريستو

— والى أين ستحمل هذا الخطاب ؟

— الى شارع هيلدر على ألا أسلمه إلا ليد الكونتس شخصيا

فرفع فوتران المظروف أمام عينيه فى مواجهة الضوء وتساءل :

— وماذا فيه ؟ أورقة نقد ؟ كلا ! بل إيصال مخالصة . رباه ! إنه رجل شهم خدوم . اذهب الآن يا كريستوف بهذا الخطاب وثق أنك ستنال هبة سخية

وكانت المائدة قد أعدت فى ذلك الوقت تقريبا ، فلم تلبث مدام كوتير وفيكتورين أن دخلتا . فسألت مدام فوكير :

— أين كنتما هذا الصباح ؟

فأجابتها مدام كوتير وهى تجلس أمام الموقد اتدفىء قدميها :

— كنا نصلى فى كنيسة القديس اتيان ، فاليوم هو موعد توجهنا كما تعلمين الى والد فيكتورين ، فالفتاة واجفة

— خير ان شاء الله .. تدفئى يا فيكتورين ..

وقرب فوتران مقعداً للفتاة من النار وقال لها :

— جميل أن يصلى المرء كى يرقق قلب الوالد..ولكن هذا وحده لايكفى، فأنت بحاجة الى صديق يحسن التفاهم مع هذا القدم ، فرجل مثله يملك ثلاثة ملايين لا يكون انساناً اذا ضن عليك ببائنة حسنة .. فالفتيات الحسان لابد لهن من بائنات فى هذا الزمان

فرشقته الفتاة بنظرة يترقرق فيها الدمع وهتفت به :

— بالله سيدي إذا كانت لديك وسيلة ما للاتصال بأبي أن تخبره أن عطفه الأبوي وشرف والدتي أغلى عندي من كل ما في العالم من أموال .

وفي هذه اللحظة هبط من أعلى جوريو والآنسة ميشونون وبواريه في وقت واحد .. ولعل رائحة الشواء هي التي اجتذبتهم .. فلما جلس الجميع الى المائدة دقت الساعة العاشرة ، وسمع وقع خطوات الطالب الريفي مقبلا من الخارج ، وبعد أن حيا جلس الى جوار الأب جوريو وقال وهو يتناول قطعة طيبة من الشواء وكسرة ضخمة من الخبز ظلت مدام فوكير مثبتة فيها عينيها لتقدر وزنها وثمنها :

— لقد حدث لي شيء خارق فقد كنت بالأمس في مرقص أقيم في دار ابنة عم لي — الكونتس دي بوسيان — وهي دار بالغة الفخامة فاخرة الأثاث والرياش وكانت المأدبة من أروع مايكون وكنت أنا شخصياً كأنني ملك زماني .. فقد راقصت أجمل حسناء بين الحاضرات ، كونتس ساحرة ، هي ولاشك أشد من رأيتهن في حياتي فتنة .. أنها حورية من حوريات الأساطير تتألق بهاء وتشرق سناء .. وليس هذا عجيباً ، ولكن العجيب أنني رأيتها هذا الصباح سائرة على قدميها في شارع « دي جرى » فخفق قلبي خفقاناً عنيفاً ، وخطر لي . . .

فقاطعه فوتران بقوله :

— إنها كانت قادمة الى هنا ؟ ها ها ! لعلها يا صاح كانت بسبيلها الى زيارة المرابي « كوبسك » فلو قدر لك أن تنبش صدور غانيات باريس ، لوجدت المرابين يشغلونها أكثر مما يشغلها العاشقون .. إن صاحبتك يا صديقي هي الكونتس انستازي دي ريستو ، وتقيم في شارع هلدر . !

فما سمع الطالب هذا الاسم حتى حلق في فوتران . . أما الأب جوريو فرفع رأسه فجأة وجعل يحدق في المتحادثين تحديقاً يفيض بالقلق والاهتمام بحيث استرعى دهشة سائر النزلاء وقال :

— إذن سيصل كريستوف متأخراً ما دامت قد ذهبت الى كوبسك

وكان صوته ظاهر الجزع .. فمال فوتران على مدام فوكير وهمس لها :

— لقد صدق حدسه . .

ومضى جوريو يتناول طعامه بطريقة آلية غير منتبه الى ما يأكل ، فقد كانت الحيرة والغباوة ظاهرتين عليه بجلاء .. أما الطالب فقال بدهشة :

— ومن هذا الذي أخبرك باسمها بحق الشيطان يا سيد فوتران ؟

— على رسلك ! فهذا الأب جوريو يعرف كل شيء عن الموضوع ، فلماذا أجهله انا ؟

— السيد جوريو ؟

وتنبه الشيخ المسكين متسائل :

— ماذا هناك ؟ أهي إذن كانت باهرة الحسن ليلة أمس ؟

— من ؟

— مدام دي ربستو . .

وهمست مدام فوكير لجارها فوتران :

— أما ترى إلى الرجل الفاني المتصابي وكيف تبرق عيناه ؟ !

وهمست الآنسة ميشونو في أذن الطالب :

— هو إذن يحوزها حقاً . . ؟

ولكن الفتى لم يلق بالا لكلامها ، بل أجاب جوريو الذي كان يتنزه النظر :

— أجل ! انها كانت أبدع حسناً مما يتصور العقل . . ولولا وجود مدام دي بوسيان لكانت ملكة المرقص ولا مراء ، فقد كانت محور اهتمام الرجال كافة .. فاسمي مثلا كان الثاني عشر في قائمتها ، ولم تفتها رقصة واحدة ، حتى كادت الحاضرات يتشققن من الغيظ . .

وعلق فوتران على هذا الحديث بقوله :

— هكذا النساء العظيمات الحسناوات في باريس : بالأمس ملكة مرقص في قصر دوقة ، واليوم ذليلة على باب مراب دنيء . . فلا تفوتنك حكمة هذه الظاهرة الجديدة : فالباريسية اليوم إذا لم يسعفها زوجها بنفقات بذخها باعت نفسها لتحصل على المال .. فاذا أعجزها هذا بحثت عن المال بأي وسيلة ، ولو أدى بها هذا إلى انتزاع اللقمة من فم أمها !

واكفهر وجه الأب جوريو ، بعد اشراق كان يكسوه وهو يصغي للطالب

أما فيكتورين فكانت منصرفة عن هذا الحديث كله بالخطوة التي كانت مزمعة أن تقدم عليها .وأشارت إليها مدام كوتير أن الوقت قد حان لكي تنهض وتلبس ملابس الخروج ، فلما انصرفت السيدتان انصرف معهما الأب جوريو ، فقالت مدام فوكير للباقين بحرارة :

— أما رأيتم ؟ لقد وضح بما لا يدع مكاناً للشك أن الرجل قد هدم نفسه وخسر ثروته تحت أقدام هاتيك النسوة . . .

فصاح إيجين دي رستنياك :

— يستحيل عليك أن تقنعيني أن الكونتس دي ربستو الحسناء ذات صلة بهذا الأب جوريو

فأجابه فوتران بتؤدة :

— ان أمثال هذا الرجل تستقر في أذهانهم فكرة لا سبيل الى نزعها منها ، وهي أنه لا يروي ظمأهم الا ماء ينبوع معين ، قد يكون ملحاً أجاجاً ، وفي سبيل رشفة من هذا الينبوع قد يبيع المرء منهم زوجته وبيته ، بل قد يبيع روحه للشيطان ! وهذا الينبوع يختلف اسمه باختلاف الناس ، فهو الميسر عند فريق منهم ، وهو المضاربة في الصفق « البورصة » عند فريق آخر ، وهو الموسيقى أو جمع التحف ولوحات الصور عند فريق ثالث . . وهو امرأة بعينها عند فريق رابع ، فلو قدمت للواحد منهم نساء الأرض كافة لما عدل بهن هذه المرأة

المبنة التي قد لا تحبه ، بل قد تسيء معاملته الى أقصى حد .. والأب جوريو من هذا الفريق الأخير .. وأعتقد ان الكونتس تأمن جانبه لالتزامه الكتمان ، ولبعده عن اثارة الشبهات في محيطها الراقي ، فهي تستغله مادياً .. وأما الشيخ المسكين فهو يتقد حباً لها ، فلا يشغل ذهنه خاطر سوى هواها ، ونيا عدا هذا فهو كما ترى دابة بلهاء . . أما سر ما حدث اليوم ، فهو ان الأب جوريو قد حمل الى الصائغ صحافاً فضية لصهرها ، ثم توجه الى المرابي كوبسك في شارع دي جري .. فاذا فعل عندما آب الى هنا ؟ أرسل كريستوف الى دار الكونتس دي ربستو .. وقد أرانا كريستوف العنوان على مظروف بداخله ايصال مخالصة .. وما دمت أنت قد رأيتها بنفسها لدى نفس هذا المرابي ، فالمسألة لاشك غامضة الاستعجال .. ولاشك أيضاً أن الأب جوريو قد سدد لها دينها بشهامة .. أجل ان هذا من الوضوح بحيث لا يحتاج الى استنتاج .. وهذا يدلك يا صديقي طالب العلم والعمل ان صاحبتك الكونتس كانت وهي تضحك أمس وتمرح وترقص وتتخايل وتتمايل انما كانت في الواقع تتقلب على جمر الغضا قلقاً على دينها المثل .. أو لعله دين عشيقها !

— لقد جعلتني على أحر من جمر الغضا أنا نفسي لهفة على معرفة الحقيقة عن يقين . . وإني ذاهب غداً الى دار الكونتس دي ربستو . . .

— ولعلك واجد الأب جوريو عندها ، لقبض مكافأته على عمله النبيل . . .

وحينئذ صاحت مدام فوكير في دهشة بالغة :

— أتقول ان الأب جوريو حمل صحافه الفضية الى الصائغ ليصهرها ؟

وسأل ايجين في خفة :

— هل كانت على غطائها حمامتان تتلاثمان ؟..

فقالت صاحبة الخان :

— انها عنده صنو حياته ...

فقال فوتران :

— ها أنت ذا ترى الى أي حد بلغ هوس الرجل بهذه المرأة

وقام الطالب الى حجرته ، وعلا فوتران الخان . وما هي إلا دقائق حتى استقلت مدام كوتير وفيكتورين عربة أجرة،وقدم بواريه ذراعه للآنسة ميشونو ليتمشيا قليلا في حديقة النباتات...

فقالت سيلفي :

— انها أول مرة يخرجان فيها معاً ... وهما صنوان يبوسة ونحولا وصلابة ، حتى لأخشى إذا اصطدما أن يتقدح عنهما الشرر !



فلما عاد الأب جوريو في الساعة الرابعة ، لاحظ احمرار عيني فيكتورين . وكانت مدام فوكير

تمضي إلى امة زيارتها الفاشلة لوالدها ذات الصباح . فقد ضاق صدر السيد « تايفير » بمحاولات ابنه ومدام كوتير أن تقابلاه ، فسمح لهما أخيراً ببضع دقائق ، لكي يعرفهما وجهة نظره بصفة نهائية . . .

واستطردت مدام كوتير تقول لها :

— عجباً ياسيدتي انه انه لم يسمح لفيكتورين بمجرد الجلوس ، فظلت واقفة طول الوقت . وكان يوجه إلى الكلام ، لانى غضب — فليته أظهر هذا الانفعال — بل بكل هدوء قائل ، فقال اننا نضيع وقتنا وجهدنا سدى بطلب الاجتماع به ،وأن الآنسة الصغيرة — فهكذا يدعوا بنته ! — تنزل بنفسها في نظره بمثابرتها على ملاحقته — وهي لاتطلب مقابلته إلا مرة واحدة في كل سنة ! — وانه بما أن والدة فيكتورين لم تكن لها ثروة خاصة ، فلا حق للفتاة عنده في شيء . . . وجعل يضرب على هذه النغمة حتى بكت المسكينة ، وألقت بنفسها تحت قدميه وقالت له بشجاعة انها انما تطلب مقابلته من أجل شرف والدتها فحسب ، وأنها على أتم استعداد لاطاعة جميع رغباته بغير تذمر ، وتوسلت اليه بكل تذلل أن يقرأ الكلمات الأخيرة التي سطرتها له والدتها في ساعة موتها ... ومدت يدها اليه بالخطاب في تضرع يفتت الأكباد ، لست أدري من أين أخذها الله عباراته الرقيقة المؤثرة التي جعلتني أبكي بحرارة ... فهل تدرين ياسيدتي ماذا كان يفعل هذا الوغد وهي تقول له هذا الكلام ؟ كان يقص أظافره ! ثم تناول الخطاب الذي سطرته مدام تايفير المسكينة بدموعها وألقى به فوق رف للوقد قائلا « لابأس.. » وهمّ أن يقدم يديه لابنته لينهضها من جثتها ، ولعله أيضاً كان سيقبلها ، ولكنه رد يده في آخر لحظة !.. أليس هذا فظيعاً !. ثم دخل ابنه المتل ، ولم يلتفت إلى شقيقته !

فصاح الأب جوريو :

— هما حيوانان بهيمان إذن !

واستطردت مدام كوتير ، غير ملتفة بالا إلى تعليق الشيخ المسكين :

— وحينئذ خرج الوالد والولد بعد أن انحنيا لي واعتذرا لارتباطهما بموعد سابق .. وكان هذا ختام زيارتنا .. وعزائي أنه رأى ابنته . وإني لأعجب كيف ينكر نسبتها اليه . وكيف يغني شبهها الكبير به ، فانها صورة منه طبق الأصل . . .



الجولة الأولى

وفى اليوم التالى نعطر راستينياك وتزين بمختلف زينه أيما احتفال ، ثم توجه فى نحو الساعة السادسة بعد الظهر إلى دار مدام دى ريستو . وكان أثناء الطريق يحاور نفسه حالماً بأقصى ما يمكن أن يتخيله من السعادة على عادة الاغرار من الشبان حين يحلمون أو حين يتصورون أحداثهم المأمولة على العموم ، فانهم يرون سبلهم إلى غاياتهم مفروشة بالورد خلواً من العقبات والمعوقات فضلا عن الأخطار . وكان يمشى فى حذر شديد خوفاً على حذائه اللامع أن يتسخ ، ويعد فى ذهنه العبارات الحقيقة الطريفة التى يجيب بها على أسئلة مدام دى ريستو كما يفترضها ، ويراجع تلك العبارات للتنقيح والتصحيح كى تكون تمهيداً صحيحاً لاعلانها بهواه عندما يأون الأوان ولكن لا يمنع الحذر من القدر ، فقد وقع الذى كان يخشاه واتسخ نعلاه ، واضطر إلى المسح وتنظيف سرواله عند الباليه رويال ، وقال لنفسه بحسرة وهو يقبض بقية قطعه من ذوات الثلاثة سنتيم كان قد حملها معه على سبيل الاحتياط لغدرات الطوارىء :

— لو كنت غنياً لذهبت إلى هناك فى عربة ، ولأتيح لى أن أتفرغ للتفكير والتدبير ...

وأخيراً وصل إلى شارع هلدر وطلب مقابلة الكونتس دى ريستو . وتقبل فى حنق النظرة المتعالية التى صبها عليه خدم القصر حين رأوه يعبر الفناء راجلا دون أن يسمعوا صوت عربة تقف بالباب . ولقد تأثر لهذه النظرة بحيث طارت من ذهنه جميع العبارات والتدبيرات التى ظل يكدسها فيه استعداداً لهذا اللقاء . ووقف المسكين ينتظر عودة الوصيف بالاذن وهو ينظر من نافذة غرفة الانتظار . وأخيراً عاد الوصيف ليقول :

— سيدى . ان سيدتى فى حجرة زينتها مشغولة عن الرد على سؤالى ، ولكن إذا شاء سيدى فليتفضل بالدخول إلى الصالون ، فتحت زائر آخر ينتظر سيدتى فيه

وتقدم راستينياك ففتح الباب الذى دخل منه الوصيف بكل ثبات ، لكى يبرهن له أنه على علم وصلة بالبيت وأهله ، ولكنه ألفى نفسه فى حجرة مزدحمة بالمصابيح وأدوات التدفئة ومناشف الحمام ، فكانت الضحكات المكتومة التى سمعها صادرة من الدهليز هى القاضية على البقية الباقية من هدوئه وثقته بنفسه . ثم قال له الوصيف فى ذلك الاجلال المبالغ فيه الذى يبدو فى الواقع مزيداً من السخرية اللاذعة :

— من هنا يا سيدى من هنا

وتراجع راستينياك كما أشار إليه الوصيف ولكن ارتباكه جعله يصطدم ببعض الأدوات فكاد يقع على الأرض ، فسنحت له الفرصة ليرى باباً يفتح في آخر الدهليز الذى تفضى إليه الحجرة ، ويسمع صوت مدام دى ريستو وصوت الأب جوريو معاً ، ثم صوت قبلة ! وتبع الوصيف فاخترق قاعة المائدة إلى الصالون الأول حيث جلس في مواجهة النافذة المطلة على الفناء لكى يتاح له أن يتحقق هل الأب جوريو هو الذى كان مع الكونتس أم لا . وكان قلبه يدق دقاً متداركاً عنيفاً ولقد قفزت الى ذاكرته تعليقات فوتران وآراؤه . وكان الوصيف لا يزال بالباب فاتجه إليه شاب بالغ الأناقة وقال له بصبر نافد :

— إنى ذاهب ياموريس ، فقل لسيدتك الكونتس انى انتظرتها أكثر من نصف ساعة

ثم اتجه الى النافذة التى كان يطل منها ايجين ، ولعله ما فعل ذلك ليطل على الفناء بل ليتزين وجه الفتى . وأجابه موريس قائلا :

— يحسن بسيدى الكونت أن ينتظر برهة أخرى ، فقد فرغت سيدتى مما يشغلها

وفى هذه اللحظة ظهر الأب جوريو متجهاً إلى الباب الخارجى عبر الفناء ، خارجاً من باب السلم الصغير ، ومنهمكا فى فتح مظلته دون أن يلق بالا إلى الباب الكبير الذى فتح على مصراعيه ليدخل منه شاب يقود عربة خفيفة أنيقة ، ولم ينتبه إلا فى اللحظة الأخيرة لكى ينجو من الوقوع تحت سنابك الخيل . والتفت الشاب صاحب العربة نحوه فى غضب ، حتى إذا تبينه ألقى إليه تحية شبه منتصبة أجابه عليها الأب جوريو بتحية ودود تطفح بالطيبة

ولقد مرت هذه الأحداث بسرعة البرق الخاطف ، والطالب منصرف اليها حتى نبهه صوت الكونتس فى الحجرة وهى تقول بلهجة يختلط فيها العتاب بالدلال :

— أكنت تنوى الانصراف حقاً يامكسيم ؟

فالكونتس لم تنتبه إلى حضور العربة وسائقها الوجيه . أما راستينياك فاستدار ليرى الكونتس فى ثوب من الكشمير الأبيض فيه عقد وردية ، وشعرها متروك على سجيته ، والعطر يتضوع منها . فلا ريب أنها خارجة من الحمام الذى كسى جمالها الخلاب بضرب من الطراوة زادها فتنة على فتنة ، أما عيناها فكانتا لامعتين لمانا رطيباً . فلما تناول مكسيم يدها ليقبلها تبين راستينياك وجه مكسيم ، وتنبهت الكونتس إلى وجود راستينياك ، فقالت له بلهجة لايخفى مغزاها على اللبيب :

— أهذا أنت ياسيو دى راستينياك ؟ كم أنا مسرورة أن أراك الآن هنا !

وجعل مكسيم ينقل النظر بين إيجين والكونتس بما معناه :

— أظن ياعزيزتى أنك لن تعدمى وسيلة لاجلاء هذا الفضولى . خلصينا منه باقه

وكانت الكونتس ترمق هذا المكسيم الأنيق الرقيع بنظرات ملؤها الامتثال ، من قبيل هذه النظرات التى تفضح مكنون سر المرأة وهى لا تدرى ، فأحس راستينياك بحقد شديد على

هذا الشاب . . فشعره الأشقر المجعد تجعيداً جيداً قد أشعره بمبلغ ما عليه شعره هو من اضطراب وبشاعة . ثم علاه الغثيان الساطان ببريق رائق قد اطلاه على مبلغ حرمان شاربه من الأناقة والمعان برغم كل ما بذله أثناء الطريق من عناية وحذر ، ثم أى فرق هائل بين ملابس مكسيم وملابسه ، فلابس مكسيم دقيقة محبوكة تبرز أجزاء جسمه فكأنه فتاة دقيقة الخصر بارزة الصدر

وبدون أن تنتظر رداً من ايجين ، اتجهت مدام دى ريستو إلى الصالون الآخر ، وتبعها اليه مكسيم .. فتبعهما إيجين عنتاً فوقف ثلاثتهم قرب للدفأة فى وسط الصالون الكبير. وكان الطالب يعلم عن يقين أن وجوده يضايق هذا الشاب السمج ولكنه عزم على المجازفة باغضاب مدام دى ريستوف سبيل إغاظته ، وقد أدرك علاقة مكسيم بها فانطوى له على كراهية الغريم لغريمه ، غير عالم أن من عادة الكونت مكسيم دى تراى أن يستدرج الناس إلى إهانته، فاذا فعلوا بارزهم وقتلهم

وإذا كان إيجين صياداً ماهراً فانه على كل حال لم يبلغ المرتبة التى وصل اليها مكسيم من إصابة الهدف عشرين مرة من اثنتين وعشرين طلقة

وانصرف الكونت إلى تقليب النار فى المدفأة بوجه هضيم عليه غبرة السخط ، فتغير وجه اناستازى ونظرت إلى ايجين نظرة تساؤل بارد ، كأنها تقول له :

— لماذا لاتمضى من حيث أتيت ؟

وتصنع ايجين السرور وقال لها :

— سيدتى ، لقد تعجلت المناسبة لكى أراك حتى ...

ولم يتم عبارته ، لأن باباً فتح ودخل منه السيد الذى دخل الفناء يقود عربة ، وقد بدا عارى الرأس ، فلم يحى الكونتس وألقى على ايجين نظرة متسائلة ، ومد يده إلى مكسيم فصافحه بطريقة تنم عن أخوة دهش لها ايجين ، ذلك أن أهل الريف يجهلون مناعم الحياة الثلاثة الأقطاب . وقدمت الكونتس زوجها إلى الطالب قائلة :

— مسيو دى ريستو

فانحنى ايجين انحناءة عميقة واستطردت الكونتس :

— وهذا هو مسيو دى راستنياك ، من ذوى قربى الفيكونتس دى بوسيان من طريق آل مارسياك ، وقد كان لى شرف مقابلته فى حفلتها الراقصة الأخيرة

« من ذوى قربى الفيكونتس دى بوسيان من طريق آل مارسياك »

كانت هذه الكلمات كافية لاحداث تأثير سحرى على زوجها فخرج عن فتوره وترمته وحيا الفتى بحرارة . بل أن الكونت مكسيم أيضاً تخلى عن وقاحته وازدرائه . فكان هذا الانقلاب أوضح برهان لدى الطالب الريفى على مبلغ ما للأسماء العريقة من نفوذ فى المجتمع الباريسى .

وساعدت هذه النجدة على تفتق ذهنه وحضور بديهته فعادت إلى ذاكرته العبارات والاشارات التي كان قد أعدها في ذهنه لهذه الزيارة

وأخذ الكونت دي ربستو يتحدث إلى الفتى عن شجرة النسب التي تربط منذ أجيال أسرته بأسرة الفيكونتس دي بوسيان حتى إذا عرف أن بين أجداده قائداً بحريا هتف به :

— أليس هو ياسيدي الذي كان يقود السفينة « المتقم » قبل سنة ١٧٨٩ ؟

— هو عينه . !

— إذن فهو قد كان يعرف جدي أنا الذي كان يقود السفينة واروك ...

وهز مكسيم كتفيه وألقى على الكونتس نظرة مؤداها أن زوجها ما دام قد أخذ في ذلك الحديث فهو لن ينتهي منه أبداً كعادته ، ففهمت انستازي مراده وابتسمت وهي تقول له :

— تعال يا مكسيم معي فلدي شيء أريد أن أكلفك به ، أما أنتما يا سيدي العزيزين فسنترككما لتبحرا على هواكما على ظهر المتقم أو الواروك

ونهضت فأشارت إلى مكسيم فتبعها نحو حجرة زينتها . وما وصلا إلى الباب حتى قطع الكونت حديثه مع ايجين وهتف بزوجته :

— انستازي . ابقي يا عزيزتي فأنت تعلمين ...

— اني عائدة ، فلن تستغرق المهمة التي أريد تكليف مكسيم بها سوى دقائق

وعادت وشيكا ، فقد أدركت بفطرتها أن هذه اللحظة من اللحظات التي تثور فيها شكوك الأزواج بقوة وإن كانت دوافع الشك غير قوية . وأدركت أيضاً أن الطالب الشاب هو المسئول عن استيلاء هذه الحالة على زوجها بإثارته اهتمامه بموضوعه المفضل وهو البحرية ، فرشقت الطالب بنظرة غيظ وضيق لم يرها سوى مكسيم الذي قال للكونت والكونتس والطالب :

— أراكم مشغولين ، ولا أريد أن أثقل عليكم

وانصرف ، فناداه الكونت عازما عليه بالبقاء ، وبادرت الكونتس باقتفاء أثره وهي تدعوه إلى العشاء ، ثم جلسا في الصالون الآخر برهة طويلة على أمل أن ينصرف الكونت الطالب الشاب

وكان الشاب يسمعهما تارة يضحكان وتارة يتحدثان ،فبذل جهده في الظفر برضى الكونت بالمجاملات حيناً وبالدعابات حيناً آخر ، مجتهداً في فتح أبواب جديدة للمناقشة في الأمور التي يهتم بها حتى يتبين مدى علاقة جوريو بالكونتس قبل انتهاء الزيارة . فهذه المرأة المغرمة في مكسيم ، والمتسلطة على زوجها ، والتي تربطها بصانع الإطريه « الشعرية » السابق صلات غامضة ، كانت تبدو له لغزاً يتلهف على استجلاء خفاياه ، ويضمر الطمع في الوصول إلى عرش قلبها يوما من الأيام

ونادى الكونت زوجته من جديد فقالت لعاشقها :

— لا فائدة يا عزيزى مكسيم ، لابد من التسليم بالأمر الواقع ، ذلى هذا للسماء

— أرجو يا عزيزتى أن توصدى بابك فى وجه هذا الشاب الذى يضمر لك جذوة مشتعلة من الهوى يبدو وهجها فى عينيه حين ينظر اليك ، فهو لاشك سيلاحقك بعبارات الغرام فاضطر إلى قتله

— هل أنت أبله يا مكسيم ؟ ان هؤلاء الطلاب الاحداث من أصلح ما يكون لاداء دور ماصات الصواعق : ولن يفوتنى أن أوجه شكوك ريتو وغيرته نحو هذا الشاب

فانفجر مكسيم ضاحكا وخرج ، وأطلت الكونتس لتراه وهو يقود حصانه ويطوح سوطه فى الهواء ، ولم تعد إلا حينما أقفل وراءه الباب الكبير ، فقال لها زوجها حينئذ :

— أليست هذه من غرائب المصادفات ؟ فضيعة أسرته لاتبعد كثيراً عن ضيعتنا فى « فرنى » ، وجدى وجده كانا زميلين

فأجابت الكونتس وهى شاردة الذهن :

— يسرنى أن يكون لنا أصدقاء مشتركون

فأجابها إيجين بصوت منخفض :

— أصدقاؤنا المشتركون أكثر عدداً مما تظنين

فحدقت فيه وسألته باهتمام :

— وكيف كان ذلك ؟

— لقد رأيت منذ قليل شخصاً يخرج من عندك . وهذا الشخص جارى المباشر فى الخان الذى أنزل فيه ، وهو الأب جوريو

وما نطق الشاب بهذا الاسم الأخير على هذا النحو حتى أخذت الكونت رجفة امتعاض وقال للشاب بحدة :

— هلا قلت « السيد جوريو » ياسيدى ؟

وشحب وجه الكونتس ثم احمر وبدا عليها الضيق ثم تصنعت الهدوء وقالت :

— من رابع المستحيلات أن تعرف السانا أدنى إلى قلبنا منه

ثم التفتت إلى البيان وقالت كأنما قد استولت عليها نزوة طارئة :

— هل تحب الموسيقى يا سيدى ؟

— أحبها كثيراً

ولكن حاله كانت قد ساءت لشعوره بأنه قد اقترف خطأ غامضا

— وهل تغنى ؟

— كلا يا سيدتى

— واخسارتاه

وأخذت تدندن أغنية إيطالية

والواقع أن إيجين قد أتى أمراً إذا يذكره الأب جوريو على هذا النحو : فهو كشخص أدخل على سبيل التكريم الخاص إلى متحف المصنوعات الدقيقة الثمينة يملكه هاو من كبار الهواة ، ولكنه أسقط على الأرض بحركة غير موفقة صفاً أو صفين من تماثيل كانت رؤوسها عطبة وملصقة إلى أجسادها بعناية ، فهو يتمنى لو انشقت الأرض وابتلعته . ورأى وجه الكونتس جامداً فاتراً ونظراتها معرضة فاعتذر وهم بالانصراف . فقالت له الكونتس :

— ثق أنك ستجد الكونت وستجدني على استعداد دائماً للترحيب بك كلما خطرت ببالك زيارتنا ...

فحياها إيجين وخرج متبوعاً بالكونت الذى أصر على مرافقته إلى غرفة الانتظار ، فلما خرج الشاب قال الكونت للوصيف موريس :

— كلما حضر هذا السيد فلن أكون هنا لا أنا ولا الكونتس

ووجد إيجين المطر ينهمر ، فلما رأى عربة كانت عائدة من موكب عرس ولا تزال بها بقية من الزهور حتى ركبها وأعطى السائق عنوان الفيكونتس دى بوسيان قريبته ، ليشكرها ويوثق صلته بها ويستفسرها عما غمض عليه من أمر الكونتس دى رستو



محنـــة عاشقة

ولم يخل الفتى من الزهو حين سمع سائق مركبته يصيح بأعلى صوته :

— افتحوا الأبواب . . .

فتقدم حاجب عليه بزة حمراء مذهبة ففتح البوابة الكبرى على مصراعيها ، وشعر راستنياك بالرضا والعربة تجتازها إلى المرحبة القصر ، فتقف به عند السلم . وفيما هو يهبط من العربة طرقت سمعه ضحكات بعض الخدم وهم يتندرون بعربته المعدة لموكب عرس من أعراس سواد الناس ، وأعانه على إدراك مبلغ غرابة عربته ، وجود عربة أخرى مطهمة أنيقة فى الفناء ، هى عربة بعض الزوار ولاريب ، يجرها زوج من الصافنات الجياد ، يعضان النواجذ على اللجم ، ويكادان يخرجان من اهابيهما توثبا وقوة ... ولا يمكن أن تساوى المركبة وجوادها أقل من ثلاثين الف فرنك بحال ... فقال الفتى فى نفسه :

— من هنا أيضاً يا ترى ؟ لابد أن لدى ابنة عمى « مكسيما » هى الأخرى !

وعرف فى هذه الساعة أنه يندر أو يستحيل أن يجد بين فاتنات باريس من ليس لها عشيق واحد على الأقل ، فالمنافسة صعبة ومريرة

وصعد الدرج ، وهو يشعر فى حلقه بغصة مترضة ... فلما وصل إلى الباب الزجاجى فتحه خدم عليهم وقار الجد ، فدخل إلى جناح الفيكونتس لأول مرة — فالمراسم أقيم فى البهو الكبير بالطابق الأرضى لاف جناح ربة البيت الخاص بطبيعة الحال — ولم يتسن له أن يتعهد تلك الفخامة العريقة التى تدل على أرفع ذوق وآنق أسلوب فى الحياة

ولما كانت الكونتس لاتستقبل أحداً قبل انتصاف الخامسة ، فانه لو بكر خمس دقائق لما حظى بلقائها ... أما الآن فقد اقتاده الوصيف صاعداً به سلماً كبيراً مفروشاً ببساط أحمر حتى يلك إلى جناح الفيكونتس التى كان يجهل عنها وعن حياتها كل شىء . مع أن هـذه الحياة لها قصة شائعة شائعة على جميع الألسن فى مجتمعات باريس

فالفيكونتس عقدت آصرة العشق منذ ثلاث سنين بينها وبين نبيل من أعلى نبلاء البرتغال مكانة وأوسعهم ثروة ، هو الماركيز « داجودا بنتو » . وكان غراما جارفاجامحاً مانعاً . لا تقبل العاشقين بوجود طرف ثالث بينهما أو معهما ، وكانت هـذه الحقيقة من الوضوح بحيث اقتنع بها الفيكونت دى بوسيان نفسه ، فكان قدوة للجميع فى احترام هـذه العلاقة إن طوعا وإن

كرهاً ، فألف الذين كانوا قد درجوا على زيارة الفيكونتس دى بوسيان فى الساعة الثانية بعد الظهر أن يجدوا للماركيز داجودا بونتو لديها . ولما كانت الفيكونتس لاتستطيع أن تغفل بإبهاق وجههم صراحة ، فقد عمدت إلى استقبالهم بفتور ظاهر ، وإلى التزام الصمت التام معهم ، حتى فهم الجميع أن وجودهم يثقل عليها ، فلم تلبث أن ألفت نفسها تتمتع بالوحدة التامة فيما بين الثانية والرابعة بعد الظهر

وفى المساء ، عندما كانت تذهب الى الأوبرا أو غيرها من المسارح ،كان يصحبها زوجها كما يصحبها الماركيز .. ولكن زوجها كان من اللباقة بحيث يغادرهما بعد أن يتركهما فى المقصورة ويذهب لقضاء السهرة مع أصحابه

والآن نبتت فى رأس الماركيز فكرة الزواج ، والفتاة التى وقع عليها اختياره هى الآنسة دى روشفيد .. وشاع هذا الأمر فى الأوساط الراقية ، حتى لم يعد يجهله سوى شخص واحد هو الفيكونتس دى بوسيان . . فهى وإن ؟ فاتحتها بعض الصديقات فى هذا تلميحاً ، لازالت تعتقد الأمر لغطاً من تدبير حاسداتها وكيدهن ، ولا أساس له من الصحة اطلاقاً .. ولكن التجاهل أو الانكار لم يعد مجدياً ، لأن عقد الخطبة سينشر رسمياً فى وقت قريب ويطلب الاذن من الملك بالزواج بصفة نهائية

وكان حضور الماركيز عند صاحبته هذا العصر على نية مصارحتها بالأمر ، ولكن الشاب البرتغالى الوسيم لم يجد فى نفسه القدرة أو الشجاعة على هذه المصارحة ، فليس أشد من توجيه مثل هذا الانذار النهائى ، الى امرأة عاشقة . . بل ان من الرجال من يستعظم مواجهة امرأة حسناء بما يسوؤها أكثر من استعظامه لبيغمرهف يلقاه بعدوه وهوعارى الصدر

وفى اللحظة التى وصل فيها ايجين دى رستنياك الى دار الفيكونتس كان البرتغالى على أحر من الجمر ، تلهفاً على الانصراف ، لارتباطه بموعدمع خطيبته،مرجئاً أمرالافضاء بالنبأ الى الفيكونتس اعتماداً على أنه سيبلغها حتما من طريق غير طريقه هو ، أو إذا كان لابد من أن يفضى به اليها هو شخصياً ، فمن الخير أن يكون ذلك فى سطور يخطها ، فالقلم أهون من اللسان فى مثل هذه الأحوال . !

فلما أعلن الوصيف الى الفيكونتس حضور السيد ايجين دى راستنياك ، استولى الفرح على الماركيز داجودا بنتو ، ولم تفت هذه الظاهرة عين الفيكونتس اللماحة ، ذلك أن المرأة العاشقة أرهف حساً بالخاطر التى تهدد غرامها من احساسها بلذة الغرام نفسه .. وكان ايجين يجهل أن المرء فى باريس لا ينبغى أن يزور كائنا من كان إلا بعد أن يستقصى من أفواه الخلق تاريخ البيت وتاريخ الزوج والزوجة والأبناء ، حتى لا يقع فى أخطاء سخيفة . . وعلى كل حال ، إذا كانت زيارته السابقة قد ثقلت على الكونتس دى ريستو ومكسيم دى تراى ، فزيارته هذه

أخذت الماركيز داجودا من ورطة كان لا يدرى له منها مخرجا .. فقال البرتغالى وهو يبادر الى باب الصالون فى شيء من اللهفة :

— وداعاً الآن إذن . .

فأجابته الفيكونتس وهى ترشقه بنظرها :

— بل الى اللقاء هذه الليلة .. ألسنا ذاهبين الى المسرح ؟

— أظنني لا أستطيع . !

فنهضت الفيكونتس ونادته ليقترب منها ، غير ملقية بالا الى ايجين الذى وقف بجوار الباب يتأمل ما حوله من طنافس ورياش لم يكن ليحلم أنها يمكن ان توجد ، وهو فى الوقت نفسه لا يدرى ماذا يصنع بنفسه فى حضرة هذه السيدة وهى لا تلتفت اليه

وأشارت الفيكونتس بسبابتها الى الماركيز اشارة لطيفة ليحتل مقعداً مواجهاً لها .. وكان فى هذه الاشارة من السيطرة العاطفية ما جعل الماركيز يترك مقبض الباب ويجلس حيث أشارت فرمقه ايجين بنظرة لا تخلو من حسد وهو يقول فى نفسه :

— هذا إذن هو الرجل صاحب العربة الفارهة والجياد الصافنات ! أحتم لزام إذن أن تكون للمرء جبال من الذهب حتى يظفر بنظرة من امرأة باريسية ؟ .

وشعر بشيطان الترف يلدغ قلبه ، وبحمى الطموح والطمع تسرى فى دمه ، وباظمأ إلى الذهب يغص به حلقه ، فان آله يشكون مرارة الحرمان لكى يوفروا له ذلك العيش الكفاف فى باريس . ولكن المقارنة السريعة بين حالته الراهنة وبين المثل المجسم الذى يشتهيه والحاضر أمامه فى هذه الساعة جعلت القنوط يستولى عليه فبهت وظل قائماً حيث هو

أما الفيكونتس فقالت للبرتغالى وهى تضحك :

— ولماذا لا تستطيع الحضور إلى المسرح ؟

— لدى أعمال ، وسأتعشى على مائدة سفير انجلترا

— استأذن إذن عند حلول الموعد وتعال .

وعندما يضطر الرجل إلى الخداع يلزمه ولقد جرته الأكذوبة الأولى إلى سلسلة من الأكاذيب . فقال الماركيز ضاحكا :

— أتصرين؟

— طبعاً

— وهذا ما كنت أريد أن أسمعه منك

وتناول يد الفيكونتس فقبلها وانصرف . وعبثاً عبث ايجين بأصابعه فى شعره وتهيأ لتحية الفيكونتس ولقد ظنها فرغت له ، ولكنها انتفضت وأسرعت إلى الردهة ، ثم جرت نحو النافذة وأطلت على الماركيز وهو يركب عربته ، وأصاخت السمع فنما إلى أذنها الأمر الذى صدر إلى السائق :

— إلى دار المسيو دى روشفيد

فكانت هذه الكلمات هي البرق اللامع والصاعقة المنقضة على هـذه المرأة التي شعرت في هذه اللحظة أنها فريسة آلام نفسية لا تقل تبريحا عن حشرجة النزع . فتلك هذه المحنة هي أقصى ما يمنى به أهل هذه الطبقة العالية

ودلفت الفيكونتس إلى مخدعها فجلست إلى نضد وتناولت صحيفة من الورق جيلة الترقيش وركت عليها هذه السطور :

« مادمت ستتعشى عند آل روشفيد لا في السفارة البريطانية فإن عليك أن تسيرهنا السلوك وأنا في انتظارك »

وبعد أن أصلحت بضعة حروف خرج بها اختلاج يدها عن خطها وقعت الرسالة بحرف ك ، اختصاراً لاسمها وهو كلير دى برجول ، ودقت الجرس لحضر الوصيف التي فقالت له :

— اذهب بإياك في منتصف الساعة الثامنة إلى قصر مسيو دي روشفيد واطلب مقابلة المركيز داجودا . فإذا كان هناك فسلمه هذا الخطاب ولا تطلب عليه رداً . أما إذا لم تجده هناك فعد إلى بالخطاب

— في الصالون شخص ينتظر سيدتي الفيكونتس

— آه ! هذا صحيح

ثم دفعت بيدها باب الصالون ودخلت



الدرس الأول

— عفوك يا سيدى ، فقد كان علىّ أن أكتب كلمة صغيرة . أما الآن فأنا رهن اشارتك
ولم تكن تفله ما تقول الفتى لأن لسان حالها كان يعنى شيئاً آخر مؤداه :

— هو اذن ينوى أن يتزوج الآنسة دى روشفيد . ولكن أهو حر حتى يفعل ذلك ؟
سيتحطم هذا الزواج فى هذه الليلة ، أو ... ولـكن لا على لاحتمال آخر

وأجاب إيجين على عبارتها المنطوقة قائلا :

— يا بنت العم ...

— هيه ؟!

ورشقته بنظرة باردة كالثلج فأدرك مقصودها فبادر إلى اصلاح خطئه وقد تضرج وجهه :

— سيدتى ... اغفرى لى ، فانى فى حاجة إلى حمايتك ، وفى الشعور بقرابتك منى ما يشعرنى بهذه الحماية

فابتسمت الفيكونتس دى بوسيان،ولـكن ابتسامتها كانت عليها أمارة من الحزن وقالت للفتى:

— حسناً يا ابن العم ، فيم عسانى أكون نافعة لك ؟

— وهل ترانى أعلم ؟ فان مجرد قرابتى منك ، ولو من بعيد ، تكفى لتزويدى بثروة طائلة من الأمجاد الاجتماعية ، ثم أنت الشخصية الـكبيرة الوحيدة التى أعرفهـا فى باريس . . . وفى نفسى أن أطلب إليك شرف الاتصال الدائم بك ، فأكون ألزم لك من ظلك ، وأطوع لك من بنانك ، وعلى استعداد دائم للموت فى سبيلك

— وهل أنت مستعد لقتل انسان من أجلى ؟

— بل اثنين

— يا لك من طفل ! أجل ، أنت طفل لا تزال

وسحت قطرات من الدمع خانتها خلسة واستطردت :

— ... ومثلك يعرف كيف يحب بإخلاص !

— آه .. بهذه المناسبة ، لفتت نظرى فى حفلتك الراقصة سيدة تدعى مدام دى ريستو ، وقد زرتها هذا الصباح

فابتسمت الفيكونتس وقالت :

— لابد إذن أنك سببت لها بزيارتك هذه ضيقاً

— أجل . فأنا كما تعلمين ربنى غر جدير أن أغضب منى جميع الناس إذا لم تسعفينى بعونك وإرشاداتك . ويخيل إلىّ أنه من المتعذر أن يجد الانسان فى باريس كلها امرأة شابة جميلة ثرية أنيقة غير مشغولة بغرام يستغرقها ، وأنا كما ترين فى حاجة إلى امرأة هذه صفاتها أتعلم على يديها ما تسمونه علم الحياة . فانى أجد أينما ذهبت شخصاً من طراز مكسيم دى تراى . ولهذا لجأت إليك لأسألك حل لغز أعيانى ولأعرف منك كنه الخطأ الذى ارتكبته . فقد تكلمت هناك عن رجل يدعى الأب . . .

وفى هذه اللحظة قطع جاك الوصيف عبارة الفتى معلناً :

— الدوقة دى لا نجيه !

فقامت الفيكونتس لترحب بالدوقة وكانت مصافحتهما دليلا على أخوة لا يمكن أن يكون هناك ما هو أغلى منها أو أخلص ، فقال الفتى فى نفسه :

— يا لها من صديقتين ! وأحسب هذه الصداقة متيحة لى مرشدتين لا واحدة ، فلهما ولا شك ذوق واحد وعواطف واحدة بحيث يكفى اهتمام احداها بى كى تهتم بى الأخرى أيضاً

وقالت الفيكونتس لزائرتها فى لهجة مسرورة :

— أى غاية ميمونة مباركة أتاحت لى أن أسعد برؤياك الآن يا عزيزتى انطوانيت ؟

— لقد رأيت المركيز داجودابنتو داخلا عند المسيو دى روشفيد فسبق الى ظنى أننى سأجدك وحدك !

ولم تضطرب الفيكونتس ولم تهتز فيها شعرة ولم يحمر وجهها ، بل أن جبينها بدا كما لو كان قد ازداد اشراقاً على اشراق ، واستطردت الدوقة وهى تنظر الى إوجين :

— ولو كنت أعلم أنى سأجدك مشغولة . . .

فقالت الفيكونتس :

— هذا المسيو إوجين دى راستنياك ، من أبناء عمومتى ، وهل لديك يا عزيزتى أنباء عن الجنرال مونتريفو ؟ لقد قيل لى أمس إنه قد انقطعت أخباره عن المجتمعات ، فهل هو كان لديك اليوم أيضاً ؟

فشعرت الدوقة بالطعنة ، لأنها عاشقة مدلهة بالجنرال الذى شاع هجره لها فى المدة الأخيرة . وتضرج وجهها وهى تجيب :

— لا أظنك يا كلارا تجهلين أن عقد خطبة للمركيز على الآنسة دى روشفيد سيعلن غداً رسمياً

فكانت الضربة هذه المرة من الشدة بحيث ترنحت تحتها الفيكونتس

— هذه أراجيف يتشدق بها البلهاء ! فلماذا يهدى الماركيز الى قوم مثل آل روشفيد

اسماً - أبهى الأسماء وأعرقها فى بلاد البرتغال ، وآل روشفيد لا ترجع نبالتهم الا الى أمس القريب ؟

— ولكن برت دى روشفيد سيكون لها دخل يبلغ مائتى ألف فرنك سنوياً

— للاركيز أضخم ثراء من أن يقيم وزناً لهذه الحسبة

— ولكن لا تنسى يا عزيزتى أن الآنسة دى روشفيد ساحرة باهرة الجمال

— آه !

— وهو الليلة سيتعشى على مائدتهم بعد أن تم الاتفاق على جميع الشروط ، وإنه ليدهشنى ألا يكون لديك علم بالأمر

فالتفتت الفيكونتس الى ايجين لتغير مجرى الحديث وقالت :

— هذا الفتى حديث عهد بالمجتمع يا عزيزتى انطوانيت ، فلترجىء هذا الحديث الى الغد رفقاً به لأنه لا يفقه فيه شيئاً . فاذا كان الغد فان الحاق من الأمر سيطلن ولا يحتاج الى كلام والآن خبرنى يا ابن العم أى خطأ تورطت فيه عند مدام دى ريستو ؟

— انى يا سيدتى بعد أن نجحت فى كسب مودة الكونت دى ريستو ، خطر لى أن أذكر له وللكونتس أنى أعرف شخصاً كنت رأيته خارجاً من السلم الصغير فصرم بعد أن لمحته يقبل الكونتس فى دهليز معتم

فصاحت السيدتان فى نفس واحد :

— ومن هو ؟

— رجل شيخ يعيش فى خان متواضع أنزل فيه أنا ، وهو تمثال للبؤس والمزء ، ويدعوه عارفوه على سبيل الزراية « الأب جوريو » ...

فصاحت به الفيكونتس :

— أيها الطفل الغرير . ان مدام دى ريستو كانت تدعى الآنسة جوريو . . .

وقالت الدوقة :

— فهى ابنة صانع إطرية (شعيرية) جمع ثروة فى غفلة من الزمان ..

وهتف الشاب وقد بدت عليه الدهشة الهائلة :

— أهو أبوها ؟

— نعم . فقد كانت له فتاتان ، هو بهما مفتون بجنون ، مع أنهما أنكرتاه وتنكرتا له . . .

وقالت الفيكونتس للدوقة :

— البنت الأخرى متزوجة من صاحب مصرف له اسم ألمانى ، أظنه البارون دى نوسينجن ؟ وأليس اسمها دلفين ؟ وهى شقراء لها مقصورة فى الأوبرا وفى الأوبرا الايطالية ،

وتضحك بصوت مرتفع جداً لتلفت اليها الأنظار ؟
— يا لنا كرنك الدهشة ! وكيف بالله تشغلين رأسك بهؤلاء القوم ؟
أما الفتى فجعل يردد كالمخاطب نفسه :
— أنكرتا أباهما وتنكرتا له ...
فقالت الفيكونتس :
— أجل ... تنكرتا لهذا الأب الطيب الذي منح كلا منهما أكثر من نصف مليون لتة ، غير مبق لنفسه سوى عشرة آلاف فرنك إيراداً سنوياً ، ظناً منه أن بنتيه ستكفيانه مل الحاجة ، وأن له في بيتيهما بيتين لا واحدا . . . ولكن ما انقضى العامان حتى أوصد دونه البابان !
فترقرق الدمع في عيني الشاب ، وأنشأت الدوقة تقول :
— هذا محزن حقاً ، وان كان يتكرر كل يوم .. وانى أذكر قصة هذا الرجل فقد كان رئيس حرفته أيام الثورة الكبرى ، فاتصل بالساسة وذوى النفوذ ، وتاجر في السوق السوداء وجعل يبيع الدقيق بعشرة أضعاف ثمنه .. ولكن هذا الرجل الذى لما للبسه حتى باع القوت للشعب الجائع بثمن اعتصره من دمائهم ، كانت له في الحياة غاية واحدة ، هى رفع بنتيه الى أعلى المرتبات ، وتوفير أسباب المتعة لهما بأى ثمن .. ولكن ما ان تم الزواج حتى ضاق زوجاها بهذا الشيخ السوقى ، وأذعنت البنتان فأشارتا اليه ألا يحضر الا في الأوقات التى لا يزورهما فيها أحد بحجة التمتع بمجالسته على انفراد فلا يفسد الناس عليهما هذا المتاع .. وفهم الرجل فيما اعتقد ولكنه طوى جنبيه على قلبه الدامى وسكت إيثاراً منه لتوفير السعادة العائلية لبنتيه ، فأصبح لا يزورهما إلا متخفياً متوارياً بالجدران وصاعداً من سلم الخدم .. فلما رأى بنتيه قد سكتتا من هذا قرت عينه لأنه أدرك أنه خيراً فعل ، وهكذا بذل هذا الوالد كل شىء لبنتيه ، بذل لها أحشاءه طعاماً عن طيب خاطر ، ونزل لهما عن كل ثروته بين يوم وليلة ، ثم نزل أخيراً من مجرد الزهو بهما ، وهو يوشك أن ينزل حتى عن رؤيتهما .. !
فقالت الفيكونتس :
— ألا ما أخس الدنيا !
فأجابتها الدوقة وهى تتناول بيدها عامة بالانصراف :
— كلا ! ان الدنيا هكذا ، فعلى من يطلبها أن يقبلها على علاتها . . . !
فلما خرجت الدوقة التفتت الفيكونتس الى الشاب وقالت :
— اسمع يا عزيزى : خذ الدنيا بما هي .. فاذا كنت ترى الى الغنم والنجاح فأقل معيشتك من طيب خاطر .. وسترى حين ينجاب القناع مبلغ الفساد ، فساد النساء وفساد الرجال على السواء .. وكنت على كثرة ما قرأت في كتاب الحياة جاهلة ببعض صفحاته ، ولكن الا له

عرفت ما لم أكن قد عرفت ! فالنجاح فى الدنيا يكون على قدر التجرد من مزايا الرحمة والنجدة ومرونة الجبل . كن قاسياً وغدا مجرداً من الاخلاص تلفز الى أصدقائك قفزاً ، فاذا اختلج قلبك بشعور صادق فحذار ثم حذار أن تطلع على حقيقته مخلوقاً ، لأنه سيكون نقطة الضعف التى تؤتى منها .. فهل جال بذهنك ان التنكر للوالد هو جريمة الفتاتين الكبرى ؟ انك إذن على خطأ كبير فانه لشر من تنكرهما لأبيهما تلك المنافسة الحامية والطيش الناشبة بينهما الى غاية من التباغض والشحناء .. فالكونت دى ريستو عريق فى النبالة ، وزوجته قدمت رسمياً للملك فحصلت بذلك على اعتراف بها صريح .. أما أختها القريبة الحسناء دلفين دى نوسينجين فهى امرأة رجل من رجال المال ، ولكن حزنها لا يعدله حزن ، والغيرة تأكل حشاشتها أكلا ، لأنها من الوجهة الاجتماعية دون أختها بفراسخ .. فليس زوجها نبيلا معرقا ، وهى لم تدع الى البلاطولم تقدم الى الملك ، ولا تفتح لها لهذا السبب أبواب الأوساط العليا ، فالأختان لهذا متنابذتان ، تتنكر الواحدة منهن للأخرى تنكرهما لأبيهما .. وان دلفين لعلى استعداد أن تلعق كل الوحل المتناثر على الطريق بين بيتها فى شارع سان لازار وبين هذا فى شارع دى جرينل ، فى سبيل أن تحظى بالدخول الى صالونى .. وقد ظنت أن صاحبها دى مارساى سيصل بها الى مأربها ولكن دى مارساى يلهو بها ويتمتع بمحاسنها ولكنه لا يأبه لها فى المدينة .. وهذا ما جعلها تلاحقه حتى أملته ، فاذا أنت قدمتها الى وأدخلتها بيتى صارت أمة لك ، وإنى مستعدة من أجل خاطرك أن أستقبلها فى حفلاتى العامة مرة أو مرتين وان اقرأها السلام ، فأنت قد أوصدت فى وجهك باب شقيقتها الكونتس دى ريستو بيدك ، وثق أنك لن تجدها فى بيتها فى أى وقت ذهبت .. فاجعل الأب جوريو يعرفك بابنته الحسناء مدام دلفين ، ومتى حصلت على قلبها بتقديمها الى ، تهافتت منافساتها على انتزاعك منها ، وستلاحظ أن أشد هؤلاء المنافسات حماسة هن أشدهن ارتباطاً بها بأواصر الصداقة .. فالنجاح عند واحدة هو مفتاح النجاح الدائم ، فالباريسيات لا يفتن الا بما فى حوزة الأخريات ، أما الرجل الذى لا تريده امرأة فلن يجد امرأة تريده .. فعليك بالبارونة دلفين ، فانك بهذا تفتح لنفسك أبواب مخادع أجمل الباريسيات ، وتنتقم فى نفس الوقت من أختها أوجع انتقام ، لأنه ليس أشد إغاظة لها من دخول شقيقتها فى الأوساط التى تحسب أنها انفردت بها دونها .. والآن اذهب يا عزيزى استعد لهذه الموقعة الأولى فى سبيل الظفر بمناعم باريس . . !



مفرق الطرق

خرج إجبين من لدن الفيكونتس ستار النضب ، ترن فى أذنه كلتها :

— لقد أوصدت فى وجهك بيدك باب الكونتس دى ربستو أبد الدهر !

فجعل يقول لنفسه :

— سأذهب إلى دارها ، وإذا اتضح لى أن الفيكونتس دى بوسيان على حق ، فأقسم لأنتقمن من الكونتس دى ربستو أيما انتقام . ستجدنى فى كل صالون تدخل إليه ، وسأتعلم الرماية حتى أقتل لها مكسبها هذا الذى تتعلق فيه

ولكن صوتا من أعماق سريرته هتف به :

— والمال يا صاح ؟ من أين لك به ؟

ولمت أمام مخيلته تلك الفخامة والأبهة اللتين تعيش فيهما الكونتس دى ربستو ، فقال لنفسه بمرارة :

— فوتران على حق ، فالثراء هو الفضيلة الوحيدة فى باريس !

وما بلغت به العربة النزل ، حتى صعد إلى حجرته مسرعا ليحضر لسائق العربة عشرة فرنكات ، ثم دخل إلى قاعة المائدة ليجد فيها النزلاء مجتمعين ، وبادره فوتران بلهجة ساخرة :

— أراك مكتئباً ياسيدى المركيز ...

— لست فى حالة تسمح لى بتحمل دعابات من يروق لهم أن يدعونى « سيدى المركيز » . فكى يكون المرء مركيزاً ، لابد له من مائة ألف فرنك دخلا سنويا ...

— ألعلك ثائر الأعصاب لأنك لم توفق لدى الكونتس دى ربستو ؟..

— لقد أوصدت فى وجهى بابها لأنى قلت لها أن أباها يأكل على مائدتنا ...

فتبادل الطاعمون جميعاً النظرات . وأغضى الأب جوريو قليلا ثم مسح عينه وقال لجاره على المائدة :

— لقد ألقيت طباق تدخينك فى عينى

فصاح إجبين :

— كل من تعرض للأب جوريو بسوء سيتعرض لغضبي ، فالرجل خير منا جميعا

فاعترضه فوتران بقوله :

— ينبغي لك كي تستطيع حماية الأب جوريو أن تحسن استخدام السيف وإصابة الهدف بالمسدس

— وهذا ما سأفعله فعلا

— يبدو أنك قد أهانت اليوم المرب على الكافة

— ربما . ولكن لست مسئولا عن تقديم حساب لأي أحد

فبدا الجو مكهربا ، ولاذ الجميع بالصمت . ثم همست مدام فوكير لطالب الشاب في دهشة :

— هو إذن والد كونتس فعلا ؟

— وبارونة أيضا

فعلق طالب الطب بيان شوبه على ذلك بقوله :

— لست أستغرب هذا ، فقد لمست رأسه ولم أجد فيها إلا وظيفة واحدة هي وظيفة الأبوة ، فهو « الأب الأبدي »

ولكن إيجين لم يطرب للنكتة لأنه كان مشغولا بمراجعة إرشادات الفيكونتس دي بوسيان وبالتساؤل عن الطريق التي يحصل منه على المال

وبدأ الطاعمون ينصرفون حتى بقي وحده مع الأب جوريو ، الذي سأله فجأة بصوت مختلج :

— لقد رأيت ابنتي إذن ؟

فأفاق الشاب من شروده وتناول يد الشيخ فتأمله بحنان وأجابه :

— انت رجل شهم كريم النفس . وسنتكلم عن بنتيك فيما بعد

ثم نهض فتوجه إلى حجرته حيث كتب إلى والدته خطابا يتوسل اليها فيه أن تدبر بأية وسيلة إرسال ألف ومائتي فرنك دون علم والده لكي يتقذ بها نفسه وشرف اسمه من ورطة وقع فيها ، ولم ينس أن يلوح لها بالانتحار في حالة تأخر ورود المبلغ . ثم كتب لكل من أختيه يطلب اليها أن تمده بمدخراتها الشخصية الضئيلة بعد أن ضرب لها على نغمة الشرف الرفيع الذي ينبغي أن يسلم من الأذى

فلما فرغ من الكتابة شعر بالخجل والندم . فهو يعلم أن حالة الأسرة المالية في غاية من السوء . ويعلم كذلك أن والدته ستحزن حزنا عميقاً إذا أعجزها أن تدبر هذا المبلغ كله . ثم إذا هي وفقت بعد لأي ، فما الهدف الذي من أجله تستغل عاطفتها النبيلة وتضحياتها الهائلة ؟ في سبيل الوصول إلى غانية تافهة من غانيات باريس اسمها دلفين دي نوسينجن

وترقرقت في عينيه قطرات قليلة من الدمع ، هي حبات البخور الأخيرة التي أحرقها هذا

الفتى على مذبح الأسرة المقدس . وكان باب غرفته مفتوحاً فرآه الأب جوزيبي على هذه الحالة فدخل عليه وقال له :

— ماذا بك ياسيدي ؟

— آه يا جارى العزيز ! إنى ابن وأخ كما أنك أب . وأنا أدرك شعورك بالقلق على ابنك الكونتس انستازى ، فهى ألعوبة بين يدى غلوق يدعى مكسيم دى تراى ، سيودى بسعادتها

فانسحب الأب جوريو وهو يتمتم ألفاظاً لم يستطع رعجين أن يتبين كنهها

وفى اليوم التالى ذهب راستينياك فأودع الخطابات صندوق البريد . وتصفه فتقول أنه تردد أمام الصندوق لحظة قبل أن يلقى فيه بالخطابات وهو يقول لنفسه :

— سأصل ! سأنجح ..

وهى كلمة المقامر ، وكلمة القائد ، وكلمة كل مقدم على مغامرة . وكم أضاعت من رجال يزيدون كثيراً على من وصلت بهم إلى شاطىء الأمان ...



والد وما ولد !

وبعد بضعة أيام توجه إيجين إلى دار مدام دي ريستو ولكنه لم يظفر بطائل ، فقد قيل له منذ أول وهلة أن الكونت والكونتس ليسا في البيت . وأعاد الكرة بعد ذلك ثلاث مرات ليحصل في كل مرة على نفس النتيجة مع أنه حرص على التوجه لزيارة في الساعة التي لا يكون فيها مكسيم عند الكونتس

إذن فالفيكونتس دي بوسيان كانت على حق . وقد أزعجه هذا كثيراً وعكر صفوه فلم يعد هذا الطالب يطلب من العلم شيئاً : فهو يذهب الى المحاضرات ليثبت وجوده عند مناداة اسمه ثم ينطلق لتوه ممنياً نفسه بأن في الوقت متسعاً للاستذكار قبيل موعد الامتحان

وفي هذا الأسبوع زار الفيكونتس دي بوسيان مرتين، ولكنه كان حريصاً على ألا يذهب اليها الا بعد أن يرى عربة الماركيز داجودا خارجة به من بوابة القصر : فقد استطاعت هذه السيدة أن تطيل حلم غرامها أياماً أخرى إذ نجحت في إطفاء زواج الماركيز من الآنسة دي روشفيد. ولكن الواقع أن الماركيز وانسباءه الجدد أملوا أن يجدي صلحه مع الفيكونتس في تعويدها فكرة الزواج فتنتهي بالتسليم بالأمر الواقع

واستطاع إيجين أن يظهر نفسه لديها شديد العطف والاخلاص وهي في حالة تعد أحرج الحالات في حياة المرأة ، ولكنه اجتهد في هذه الفترة أيضاً أن يدرس ميدان معركته القادمة دراسة دقيقة فاتصل برجل يدعى « موريه » هو الذي اشترى من جوريو تجارته وعرف منه جميع المعلومات المتعلقة بحياة جوريو !

نعرف أن جوريو كان قبل الثورة الفرنسية عاملا أجيراً في صناعة الأطرية . وكان رجلا ماهراً مقتصداً حصيفاً دؤوباً فاستطاع أن يشترى من مخدومه مصنعه الصغير واستقر بقرب سوق الغلال ، ثم سعى الى تزعم اتحاد حرفته . وبهذه الصفة استطاع الوصول إلى أصحاب النفوذ في هذه الفترة المتقلبة الخطرة ، فكانت هذه الحظوة هي السبب الرئيسي لا ثرائه السريع : ففي الوقت الذي كان الناس فيه يقتتلون على أبواب المخابز كان جوريو يحصل على قمح يبيعه بأسعار خيالية . حتى إذا كون رأس مال ضخم خرج من السر إلى العلن وقام بعملياته على نطاق واسع وبالجرأة التي تتيحها لأصحابها رؤوس الأموال الضخمة . ومن حسن حظه أن ثراءه الفاحش لم يعرف أمره الا بعد أن مرت « الفترة الحرجة » ولم تعد الأموال الطائلة تجر الوبال على أصحابها

ويبدو ان تجارة الغلال قد استولت على كل ملكات الرجل فهو خبير بأنواعها وطرق حفظها من التلف ومصادر استيرادها بل وكانت له القدرة على التنبؤ بما سيكون عليه المحاصيل من وفرة أو قلة . فهو في هذه الفنون كلها بحر زاخر لا أول له ولا آخر يكاد من يراه يدير دفة أعماله أو يناقش فيها يحسبه أهلا للتربع في دست الوزارة . ولكنه متى خرج من هذه الدائرة وغادر عتبة دكانه التي كان يقضي عليها معظم أوقاته متكئاً بكتفه الى عارضة بابها ، انقلب سوقياً جلفاً جاهلا لا قدرة لديه على متابعة استدلال ، ولا حس لديه للذات الفكر والروح ، فهو إذا ذهب إلى المسرح غط في النوم

أما امرأته ، وهي الابنة الوحيدة لمزارع غني فكانت لها لديه مكانة تكاد تكون فيها قديسة من قديسات الكنيسة ، فهو يحبها حباً لا حد له لأنه تمثل فيها الرقة والقوة والحساسية والجمال ، وهي صفات هو في أشد الحاجة إليها . ولكن زواجهما لم يدم سبع سنين ترمل بعدها جوريو فحزن عليها حزناً شديداً وبدأت عواطفه الزوجية تخلي السبيل لعواطف الأبوة نحو بنتيه

وتقدم إليه كثير من التجار ليصهروا إليه طامعين في تزويجه إحدى بناتهم ولكن الرجل آثر الترمل براً بينتيه واكتفاء بهما ، وقيل لهذه المناسبة أن الرجل كان قد أقسم لزوجته على الوفاء وأنه حرص على البر بقسمه حتى وهي تحت التراب

وبطبيعة الحال كانت تربية البنتين شيئاً لا منطق فيه ولا ذوق : فهو غني جداً ولا هم له في الحياة إلا تدليل البنتين والاستجابة لأي رغبة تخطر لاحداهما بغير تردد أو مناقشة . ولكنه جلب لهما خير الاساتذة واستخدم لهما مرافقة ممتازة علمتهما آداب المجتمع على أحسن وجه . وفيما عدا هذا كانتا تقضيان الوقت في امتطاء الجياد والتنزه في العربة الفاخرة التي اشتراها لهما جوريو ، فكأنهما في الواقع عشيقتا نبيل طاعن في السن . فيكفي أن تطلب الواحدة منهما أي شيء لتناله في التو نظير قبلة أو ملاطفة بسيطة . فالرجل كان يحبهما الى درجة التلذذ بالآلام التي كانتا تسببانها له

فلا غرو إذن وقد بلغتا سن الزواج أن يكون لهما الرأي الأول والأخير في اختيار زوجيهما ، مع التصريح بأن كل واحدة منهما ستنال نصف ثروة أبيها بائنة لها يوم زواجها . فلما أغرم الكونت دي ريستو بجمال انستازي ، وكانت الفتاة مغرمة بالأبهة والارستقراطية ، فهذا لم تتردد في قبوله والانتقال الى محيط الطبقة الراقية . أما دلفين فكانت تحب المال . فهذا تزوجت من نوسينجن المصرفي الألماني الأصل . وأما جوريو فبقي صانع إطرية ، ولكن زوجي بنتيه استنكفا من هذا فألحا عليه باعتزال المهنة التي كانت حياته كلها . فأذعن الرجل بعد خمس سنين جمع فيها ثروة تكفل له دخلا سنوياً يصل الى عشرة آلاف فرنك ، ثم أقام في خان فوكير بعد أن وجد بنتيه تضيقان به ، بل تضيقان بزيارته لهما في أوقات الاستقبال

وصول المدد

وفى أواخر الأسبوع الأول من شهر ديسمبر تلقى راستينياك خطابين أحدهما من والدته والآخر من شقيقته الكبرى ، وقد أخبرته أمه أنها دبرت المبلغ بمعونة شقيقتها ، فباعت الذى كان البقية الباقية من يسرة الماضى لكى توفر له المبلغ المطلوب . ثم أخذت تنصحه وتوصيه بالجد والاجتهاد لأن أمل الأسرة كلها معقود عليه . فلما تلا الفتى الخطاب خنقته العبرات وتذكر منظر الأب جوريو وهو يصهر أدوانه الفضية ويبيعها ليسدد ديون ابنته ، وقال لنفسه :

— هاهى والدتك تفعل فعله بحليها . ولا ريب أن خالتك قد ذرفت دمعاً سخيناً وهى تبيع شيئاً من ايقوناتها الذهبية . فأى حق لك أيها الفتى النزق فى أن تدين انستازى دى ريستو لأنها تعصر دم أبيها فى سبيل الأبهة أو لتشترى رضى عشيقها ؟

وأحس الفتى أن ناراً محرقة تستعر فى أحشائه ثم فتح الخطاب الآخر فوجد شقيقته تخبره أنها جمت مدخرها ومدخر أختها وبجموعهما ثلاثمائة وخمسون فرنكا مضحيتين بما تعودتا أن تنزلاه لنفسيهما من ملابس ...

فأحس ايجين أن كنوز الأرض جميعاً لايمكن أن تساوى هــذا الاخلاص البرىء . ولكن فكرة تجمع الف وخمسمائة فرنك فى يده سكنت الآلام التى كان يسببها له ضميره . وبدأ يفكر فى الحياط الذى سيجعله ينافس مكسيم فى الرشاقة والأناقة

وفى هذه اللحظة دخل رسول البريد الى قاعة المائدة وسأل عن ايجين دى راستنياك ثم قدم اليه كيسين ثقيلين وكراسة ليوقع فيها بالاستلام . فرشقه فوتران بنظرة نفاذة وقال :

— ها قد صار لديك ماتأخذ به دروساً خصوصية فى السلاح

وهم الجالسون بالانصراف بعد انتهاء هذا المشهد ، بيد أن ايجين صاح بفوتران :

— أرجو منك الانتظار

— ولماذا ؟

— أريد أن أرد اليك قرضك الصغير

ثم قدم اليه عشرين سنتيما بعد أن أعطى مدام فوكير كراء الخان بضعة أشهر مقدما . فقال له فوتران :

— كأنى بك لاتريد أن تكون مديناً لى بشىء ولو كان تافها

— أجل لا أريد . .

ونهض الفتى حاملا كيسيه ليصعد بهما إلى غرفته ولـكن فوتران قال له وهو يتجه نحوه بتحد:
— أتعلم ياسيدى الماركيز المبجل أن مانلته لى الآن ليس كلاما فى غاية الأدب ..
فأقفل راسنيناك الباب وراءه بعد أن خرج متأبطاً فوتران إلى المربع الذى يفصل قاعة المائدة عن المطبخ وأدى به باب يفضى إلى الحديقة ، وهناك قال الطالب على مسمع من «سيلى» الطباخة :
— ياسيد فوتران ، لست مركيزاً ولا أحب أن تدعونى بالماركيز
وقالت الآنسة ميشونو معلقة :
— انهما سيتقاتلان
وصاحت فيكتورين وهى تنهض لتطل على الحديقة :
— هاهما تحت الزيزفون ، ولـكن الشاب المسكين على حق .!
فقالت لها مدام كوتير :
— هيا بنا نصعد إلى حجرتنا يا ابنتى فهذه الأمور لاتعنينا فى شىء
فلما أخذتا فى الصعود لقيتهما الطباخة وقالت لهما ان الرجلين يتحدثان تحت الزيزفون .
وفى هذه اللحظة ظهر فوتران وقال لصاحبة الخان :
— لا تفزعى ياماما فوكير ، فانى سأجرب مسدسى تحت الزيزفون
فضمت فيكتورين يديها وتوسلت اليه قائلة :
— لماذا تريد ياسيدى أن تقتل المسيو إيجين ؟
فتراجع فوتران إلى الوراء خطوتين وحلق فى الفتاة وصاح :
— ماشاء الله ! وهذه حكاية أخرى ، انه لطيف هـذا الشاب الجميل ، أليس كذلك ؟
لعمرى لقد حببت إلى أن أسعى فى اسعادكما بإطلاق الجميلة !
وكانت مدام فيكتورين قد قبضت على ذرع ربيبتها وجرتها إلى السلم وهى تهمس فى أذنها :
— لله ما أعجب أطوارك اليوم !
وصاحت مدام فوكير :
— لا أريد أن يطلق فى بيتى رصاص . أم تراك تريد ازعاج الجيران واستدعاء البوليس فى هذه الساعة ؟
— على رسلك يا أماه !
ثم لحق براسنياك وتأبط ذراعه بغير تكليف وقال له :

— هل أنت متأكد أنني إذا أثبت لك قدرتي على اصابة علامة واحدة خمس مرات متوالية على بعد خمس وثلاثين خطوة ، سوف لا تخونك شجاعتك ؟ انك عصبي ويخيل إلي أنك ستفشل في أول جولة بكل حالة

— أنت تتراجع إذن ؟

— لا تمتحن صبري . هيا اجلس على هذا المقعد وأعرني سمعك فلدي ما أقوله لك ، فأنت فتى لا أدرى لماذا أحبك . بل لعلني أدري ، وإني مخبرك بذلك ، فضع عودك على هذه المائدة وهدىء روعك حتى تحسن وزن ما أقوله لك . .

وفعل ايجين كما أشار عليه فوتران ، وجلس مصغياً اليه بجميع حواسه



الدرس الثانى

قال فوتران :

— لعلك مشوق أن تعرف من أنا وماذا كنت أصنع أو ماذا أصنع الآن .. ولكن لا شأن لك بهذا ، فقد مارست الأيام وامتحنتنى الأحداث بخطوب جسام .. حتى لم يعد تاريخى سوى ثلاث كلمات : من أنا ؟ فوتران ! وماذا أصنع ؟ ما يروقنى ! وما خليقتى ؟ طيبة القلب مع الطيبين ومع من يميل اليهم قلبى ! حلى لهؤلاء كل شىء ، يصفعوننى أو يركلوننى فى عظم ساقى ولا أنبأهم .. ولكن اذا توسمت الشر فى انسان فلن ينقذه من يدى أحد .. وليس قتل انسان عسيراً على ، بل هو أهون من قلامة ظفر ، بيد أننى أحب إذا قتلت إنساناً أن أقتله كما ينبغى وبحسب أصول المهنة ، فأنا فنان فى هذا الموضوع بل أنا أحب الجمال وأنشده فى كل شىء والحياة والموت بعد حظوظ واتفاق . وليست المبارزة الا لعبة من ألعاب الحظ والمصادفة ، ثم هب أنك لتلقى ، وهو على تمنزه ليس مستحيلا ، فماذا تراك ستجنى ؟ إنك ستضطر الى مغادرة البلاد والحياة فى المنفى ويبدأ عتاب « بابا وماما » لتدبير النفقات الباهظة فى بلاد الغربة ، « وبابا وماما » ليست حالتهما من اليسر والرخاء بمكان ، فدعنى يا صديقى الصغير أبين لك موقفك الراهن على حقيقته : لابد لك من إحدى خطتين لا ثالث لهما : إما الاستسلام لظروفك القاسية وإما التمرد ومحاولة الوصول الى شىء ذى خطر فى هذه الحياة الدنيا . فهل تعلم كم يلزمك لكى تعيش العيشة التى تطمح اليها ؟ مليون فرنك دفعة واحدة ، وهذا المليون سأتكفل أنا بتقديمه اليك ! أجل لابد لك من هذا المليون حاضراً .. فلو ذهبت تحصله بالشرف والأمانة وممارسة القانون لما حصلت عليه أبداً ، فلا سبيل إذن أمامك إلا التمرد والاجتراء على القيم والأوضاع منذ الآن .. فأنت الآن فى مفترق الطرق : إما الوصول والتمتع والرفاهية ، وإما البقاء فى الدرك الأسفل من المجتمع خاملا محروما . فماذا تزمع أن تصنع إذا فرغت هذه الألف وخمسمائة فرنك ؟ هل تعرف الطريق للحصول على المال فى هذا البلد ؟ لا طريق سوى العبقرية أو اللصوصية . أما الشرف فلا طائل تحته لرجل عادى . وإذا أردت نصيحتى ، فلم لك أن تكون لصاً من أن تكون عبقريا ! فالعبقرى مكروه ، محسود . محقود عليه ، لأنه معدن غريب ، ولأنه لا يشارك الناس ولا يشاركونه ! أما اللصوصية فليست معدناً غريباً ، ولا تثير حقداً ولا كراهية ! انها السلاح الذى لا يخيب ، فعليك به ، لأنك إذا لم تستخدمه ، فلن تحظى

ان تحس بنؤابته فوق رقبتك ..! سترى كيف تنفق زوجـة الوظف التى مرتبه ستة آلاف عشرة آلاف على زينتها وثيابها وحدها ! سترى موظفين يتقاضى الواحد منهم ألفاومائتى فرنك فى السنة ويشترى الضياع والمتاع ! وسترى نساء يهدرن عفافهن فى سبيـل الركوب فى عربة « ابن ذوات » ! فاذا كنت تريد الاثراء فلا تقنع بالضربات الصغيرة ، بل عليك بالضربات الكبيرة .. واعلم أن قانون الأخلاق فى هـذا العصر هو الوصولية ! فالوصول هو الفضيلة يا صاحبى ، والفشل هو الرذيلة والرجس الأكبر !

— ماذا ترى لى إذن ؟

— أرى لك أن تعمل بالاقتراح الذى سأعرضه عليك الآن ..

— وما هو ؟

لدى فكرة متسلطة على دماغى ، وهى الحياة فى ضيعة واسعة يعمل فيها مئات العبيد فى الدنيا الجديدة .. فأجمع بضعة ملايين من بيع الثيران والطباق والأخشاب ، وأنا أعيش عيشة السلاطين ، أمرى نافذ وإرادتى مطلقة .. وأنا يا صاحبى شاعر كبير ولكن قصائدى ليست كلمات منظومة وإنما هى عواطف وانفعالات وأعمال ، ولست فى حاجة إلا إلى مائتى ألف فرنك لأنى أريد أن أبدأ بمائتى عبد من الزنوج حتى أوفر لنفسى تلك الحياة القبلية التى أحلم بها فالعبيد يا عزيزى محصول بشرى يأتينى كل عام من ذراريهم أفصـل به ما أشاء دون أن يكون لأى وكيل نيابة ان يسائلنى عنهم حسابا! وبرأس مالى هذا من الزنوج يتيسـر لى فى العشر سنين الأولى ان أجنى ثلاثة ملايين أو أربعة .. حتى إذا أنجحت فى تحقيق ذلك لم يسأل انسان من أنا ؟ فانى سأكون حضرة السيد المحترم « أربعة مليون » من مواطنى الولايات المتحدة ! وسيكون لى من العمر خمسون سنة . وهو عمر ليس منتهى الشيخوخة ، ففى مقدورى أن أتمتع بالحياة .. !

— ولكن أنا ، ما علاقتى بهذا المشروع ؟

— وصلنا ! إذا أنا يسرت لك بائنة عروس قيمتها مليون من الفرنكات ، فهل ترضى ان تعطينى منه مائتى ألف فرنك ؟ عمولة عشرون فى المائة ، فهل هـذا كثير ؟ لن يكلفك الأمر بعد أن تكسب بلطفك وشبابك قلب عروسك سوى إظهار القلق وشرود الذهن وانشغال البال خمسة عشر يوماً ، وذات ليلة ، بعد القيام ببعض الحركات المسرحية تفضى اليها — فيما بين قبلتين — بأنك مدين بمائتى ألف فرنك «يا حبوبتى» ! وثق ان هذه المهزلة تتكرر كل يوم فى أرق الأوساط ، وما من امرأة تقدر على منع كيس نقودها عن الرجـل الذى استحوذ على قلبها .. وهكـذا تكون قد بنيت فى ستة أشهر من الزمان صرح سعادتك وسعادة زوجتك الشابة الرقيقة وسعادة بابا فوتران ، فضلا عن سعادة الأسرة التى تتبلغ بالعيش الجاف فى ركن من أركان الريف ! فلا تعجب مما أعرضه عليك ولا مما أطلبه منك ، فبين ستين زواجا موفقاً

يعقد في باريس سبعة وأربعون أساسها هذه المساومات

— ولكن ماذا على أنا ان أصنع ؟

— تقريباً لا شيء ! اصغ الى : ان قلب الفتاة الفقيرة الكبيرة الخاطر مثله كمثل القطعة من الاسفنج ، فهو أشوق ما يكون الى امتصاص الحب والامتلاء به أينما وجده حوله .. فما أيسر أن تطارح الهوى شابة مستوحشة يستولى عليها اليأس والفقر دون أن تدرى أى ثروة يخبئها لها المستقبل . . حتى إذا هبطت الملايين على هذه الفتاة لم تتردد في طرحها تحت قدميك كأنها الأصداف التي لا قيمة لها وهى تقول : « خذها يا حبيبي فهى كلها لك ! »

— ولكن أين أجد هذه الفتاة ؟

— إنها بين يديك

— الآنسة فيكتورين ؟

— بعينها

— وكيف ؟

— انها تحبك يا صاحبي منذ الآن

— ولكنها لا تملك دانقاً ولا درهماً !

— ها قد بلغنا مربط الفرس ، فأعرني سمعك يتضح لك كل شيء : إن الأب تايفير وغد عتيق ، يقال إنه قتل بعض أصحابه أثناء الثورة ، وهو رجل مستقل الرأي لا يقيم وزناً لقيم الاخلاق أمام رغباته الخاصة . وهو مصرفي واسع الثراء وله ابن وحيد يريد أن يورثه كل ثروته من دون فيكتورين . وهذا الظلم لا يروق لى شخصياً ، فأنا مثل دونكيشوت أنتصر للضعيف من القوى . فاذا كانت ارادة الله العلى أن يسترد منه ولده هذا ، فلن يجد تايفير مناصاً من أخذ ابنته في أحضانه ، لانه لابد له من وريث على كل حال . وفيكتورين حلوة رقيقة الجانب لن تخطىء أن تستولى على عقل أبيها وقلبه . وسيكون عطفك عليها وحبك لها أيام فقرها قد أثر في نفسها فتصر على الزواج منك . هذا دورك يا صاحبي وهو كما ترى سهل جميل . أما دورى أنا فأصعب ، لأنى سأمثل العناية الصمدانية ، وسأقوم بمهمة اقناع المولى العلى باسترداد ابن تايفير . فلى صديق من رجال الحرس موثوق به على استعداد للاقدام على أى شيء ولو كان صلب المسيح اذا أنا أمرته به . وسيتولى هذا الصديق اغراء الشاب تايفير بتحديه أو اهانته . ثم يحل الاشكال ، وفى الظلام ، دون أن يدرى أحد كيف حل ...

— يا للفظاعة ! أتمزح يا مسيو فوتران ؟

— رويدك ! لا تتصنع براءة الطفولة . وفكر في الأمر ملياً . فهو ليس على الظاهر من بشاعته بأبشع كثيراً من كبائر أخرى سوف تقدم عليها في مقبل حياتك خلي البال . وإلا فخبرنى هل هذا شر من الاحتيال على غانية تبيعها ماء شبابك يوماً لتحصل منها على المال ؟ ولا تحاول

أن تنكر أنك فكرت في هذه الوسيلة وفي هـذا الحل لأنه من أين لك أن تعدو النجاح في المجتمع والوصول الى الجـاه من دون التعويل على بيع هواك للنساء كما تبيع العاهرة هواها ؟ والفضيلة يا صاحبي لا تتجزأ ، فالذي يبيع جسده والذي يهدر الدم البريء سواء في بعدهما عن مآزر الفضيلة الناصعة البياض . فليس بين الذي اقترحه عليك وما ستقدم عليه بل تنوي الاقدام عليه كبير فرق . فاما أن تتمسك بمبدأ الشرف والاستقامة ، فعليك اذن أن تلبث حيث أنت ولا تنظر الى ما فوقك ولا تطمع في تغيير حالتك ، واما ان تطمع الى التمتع بالدنيا ، فخذها اذن كما هي وتوسل اليها بوسائلها ، واعلم أنه ما من جاه طائل في هذا العالم الا وفي أساس صرحه الشامخ جريمة مستورة نسي الناس وزرها ووضرها بالذي بهرهم من بذخ حاضرها وترفه

— حسبك يا سيدي حسبك ! لا أرب لي في سماع المزيد من اغوائك ، فقد أوشكت أن تفتنني عن نفسي وتشككني في وجود العاطفة الانسانية ، وهي اليوم حلمي الوحيد وفني الفريد

— أنت وما تريد أيها الطفل الوسيم . لقد ظننتك أصلب عوداً ، ولكن لي كلمة أخيرة...

وثبت عينيه في الطالب الشاب ثم استطرد :

— لقد كشفت لك عن سري

— ان في قلبه من الصراحة ما يكفي لرفض ما عرضت علي فبن أن بنساه جملة وتفصيلا

— أحسنت يا فتى ! ولو غيري لما اطمأن الى لفظ معسول . ولكني أميل اليك ، ولهذا لا زلت أضع الأمر بين يديك ، وأمامك خمسة عشر يوماً تتدبر فيها فلعلك تتوب الى الصواب...

واستدبره وانصرف



تمام الآهبة

وجعل الفتى ينظر الى العملاق وهو يبتعد عنه فى هدوء وقد تأبط عصاه ، ثم هز رأسه وقال لنفسه :

— يا له من رجل صعب المراس ! إن ما قاله لى عن وسائل النجاح فى الحياة لا يختلف فى شىء عما قالته لى الفيكونتس دى بوسيان إلا فى الأسلوب وظاهر العبارة ، فهى امرأة متأنقة أما هو فيأبى أن يعرض الحقيقة إلا عارية مجردة . ويحه ! لقد نبش قلبى بمخالب من فولاذ ! ولماذا - ليت شعرى - أريد أن أتعرف الى البارونة دلفين دي نوسنجين ؟ لقد حرك الرجل بواعثى ودوافعى ، وعرفنى من أمر الخير والشر ما لم تعرفنى به الأسفار الضخام والأساتذة الأعلام

ورمق كيس النقود الذين أمامه على النضد فى المدينة واستطرد :

— . . . وكأنى وقد سرقت أختى هذا المال لأصرفه فى الملذات . فأنا إذن قد جانبت طريق الفضيلة وانتهى الأمر ، وباعدت بينى وبين أهل الخير والبر . . . ولكن . . من ذا من الناس يتمسك بحبل الفضيلة ، وإن كانوا جميعاً يتشدقون بها ؟ ومن طلب الجليل من الأمر لم يأبه أن يخوض اليه الأوحال ... ولكن لا ! وألف لا ! فما أجل أن تتقدم بالمرء السن فيستعرض حياته أمام عينيه فاذا هى بيضاء من غير سوء ، طاهرة كزنابق الحقل ! سأسلك الطريق الشاق الطويل ، طريق العمل الشريف ، فأنا والحياة مثلنا كمثل خطيبين ، ينبغى أن يتصفا بالطهر ويتجنبا كل ما يشين ، حتى تقوم الحياة بينهما على الاحترام المتبادل والصفاء الكامل . . . رباه ! إن رأسى تدور ، فما أدرى أيان أسلك فى شعاب هذه الحياة التى تبدو لى كالتيه . .

وأخرجته الطباخة سيلفى من صمته ، منبهة إياه الى حضور الخياط الذى أوصاه أن يصنع له كسى لائقة على آخر طراز . فقام ليجربها ، فلما لبس واحدة منها ونظر الى نفسه فى المرآة قال :

— لقد أصبحت لعمرى لا أقل بهاء عن مكسيم دى تراى ! فأنى أبدو وجيهاً شريفاً فى هذا الكساء !

ولم يلبث أن دخل عليه الأب جوريو حجرته وقال له :

— لقد سألتني يا سيدى عن البيوت التي تتردد عليها مدام دى نوسينجين . . .

— أجل . . .

— إنها ستذهب يوم الاثنين المقبل الى الحفلة الراقصة التي يقيمها الماريشال كاربلياتو . فاذا كنت ذاهباً اليها ، فيشوقني لك أن تخبرني كيف بدت بنتاى فيها . . .

— ولكن كيف عرفت هذا أيها الوالد العزيز ؟

وأخذ يد الشيخ فأجلسه قرب المدفأة ، فأجابه في سرور ظاهر :

— أفضت الى به وصيفتها ، فأنا أعرف جميع أخبار بنتيّ من وصيفتيهما « تيريز » و « كولستانس » .

فكأن الرجل الشيخ عاشق مدله لم ينل الحظوة ولكنه يتعلق بأخبار الحبيبة ويتسقطها من أفواه الخدم ! ثم استطرد الشيخ :

— إني أغبطك ، فانك أنت ستراها . . .

— لا أدرى . . . سأذهب على كل حال الى الفيكونتس وأرجوها في تقديمي الى الماريشالة . . .

وشعر الشاب بالسرور يداخله لفكرة مثوله بين يدى الفيكونتس في زيه القشيب الأنيق ، فأنساه هذا الزهو كل ما كان يجيش في حناياه من ندم وتأنيب ضمير ، ونسى عواطفه الطاهرة التي كانت تتحمس للفضيلة العذراء ! فما إن رأى نفسه أنيقاً وجيهاً حتى هانت عليه كل هذه النظريات ، ورأى متاع الحياة وغرورها كفؤا للخطيئة والرذيلة . ألا ما أضعف الانسان !

وكان الجاران ، الشاب ايجين والشيخ جوريو ، قد تقاربا كثيراً في الأيام القليلة الماضية ، لأن الشيخ قد أدرك بحاسة مجهولة لديه كحاسة الكلاب حين يعرف صديقه من عدوه بغير تفكير . ولكن هذا التقارب لم يصل بهما بعد الى مرتبة التكاشف بالخفايا ومكنونات الطوايا . فلم يحدثه الشيخ عن بنتيه إلا فيما يتصل بما ورد على لسان الشاب على المائدة عقب عودته من زيارة الكونتس دى ريستو . فقد زار الشيخ الشاب في اليوم التالي وقال له :

— من أين أتاك يا سيدى العزيز أن الكونتس دى ريستو أعرضت عنك أو غضبت عليك لأنك ذكرت أمامها اسمى ؟ إن ابنتي تحبانى كل الحب ، وانى بأبوتهما جد سعيد . ولكن صهري هذا الفنان أساء معاملتي وأشاح عني وصداً صدوداً ، فلم أشأ أن أعكر صفو حياة ابنتي ، وفضلت التضحية من جانبي ، ورضيت ألا أراها الا خلسة . وهذا الاختلاس للذة الحلال فيه من المتاع ما لا يخطر ببال الآباء الذين يرون بناتهم جهاراً . أما أنا فليس لى الى ذلك سبيل . أتدرى ماذا أصنع اذن؟ إذا كان الجو صحواً ذهبت الى « الشانزيليزيه » — بعد أن أكون قد عرفت من وصيفتيهما أنهما ستذهبان الى هناك — وأنتظر في الطريق لأراهما حين تمران في عربتيهما المطهمتين ، وزينتهما الباهرة ، وأسعد بابتسامة تلقيانها الى ، فتضىء حياتي كأن شعاعاً من

الشمس قد دخل الى قلبي المظلم ! ثم أنتظر مرورها مرة أخرى في طريق العودة ، لأسعد برؤيتهما مرة أخرى وقد تورد وجهاهما وأجدت عليهما النزهة في الهواء الطلق. ويداخلني الزهو والاغتباط حين أسمع من حولي عبارات الاعجاب بهما وبجمالهما الفتان ! فهما لحمي ودمي ، ومن حبهما أحب الخيل التي تحملهما أو تقلهما ، وأتمنى لو كنت الكلب الصغير الذي تحملانه فوق ركبتيهما فلم تعد لي حياة إلا حياتهما ، ولا متعة لي إلا أن أراهما تستمتعان ... فلكل امرىء له طريقته في الحب ، وتلك طريقتي ، ولا ضير منهــا على مخلوق ، فلماذا لا يدعني الناس آمناً في سربي ؟ فهل افتأت على أحد بتسللي تحت جنح الليل كي أرى ابنتي في نجوة من الناس ، وهما خارجتان لحضور حفلة راقصة أو للذهاب الى الأوبرا ؟ ويا لهــا من مصيبة إذا وصلت متأخراً وقيل لي « إن السيدة قد خرجت » .. فقد ظللت مرة في الطريق الى الثالثة صباحاً لكي أرى « نازي » حين تعود من السهرة ، لأني لم أكن قد رأيتها منذ يومين !.. ولــكن إياك أن تظن بهما الجحود ، فهما تريدان اغراقي بالهدايا والألطاف ، ولــكنني أنا الذي أرفض ، وأقول لها : « وفرا نقودكما . فما بي حاجة الى هذه الأشياء في هذه السن . لست بحاجة الى شيء » .. وهــذا حق ! فما أنا حتى يضيع المال في حوائجي ؟ ما أنا إلا جيفة لا قيمة لها في ذاتها ، لأن روحي موزعة على جسدي ابنتيّ هاتين !.. وأرجو إذا لقيت مدام دي نوسنجين أن تصارحي أي ابنتي أبهى جمالا وأبدع حسناً ... »

وإذ رأى الشاب يتأهب للخروج للنزهة في حدائق التويلري حتى يحين موعد الفيكونتس دي بوسيان ، استأذن في الانصراف وهو لا يزال يتمتم حديثاً غامضاً عن بنتيه



خرج الفتى الى التويلري بقصد النزهة وقطع الوقت ، فكانت هذه النزهة هي القاضية على البقية الباقية من صوت الضمير فقد خنقته خنقاً ، فمات دون أن تند عنه نأمة ! ذلك أن نفراً من السيدات المتنزهات هناك التفتن إليه معجبات ، لأنه كان غض الاهاب ، أنيق الثياب .. فاستشعر من ذلك زهواً كاد يخرج به عن طوره ، ولم يعد لشقيقتيه ذكر في ذهنه المنتشي بهذا النصر السهل !

فلما قاربت الساعة الخامسة ، توجه الى قصر الفيكونتس دي بوسيان ، فوجد في انتظاره ضربة من تلك الضربات التي تحطم الآمال وتذل الكبرياء . فان الفيكونتس التي كان يجدها على الدوام باسمة الثغر ، مهذبة ، حفية ، لقيته في هذه المرة بجفاء وضيق ، وقالت له في خشونة سافرة :

— يستحيل علي أن أجلس اليك يا مسيو دي راستنياك ، في هذه الساعة على الأقل ، فاني مشغولة ...

وكان هذا حرياً أن يرده من بابها ، هذه الساعة على الأقل . ولكنه كان قد تعلق بالنجاح

وبدأ في سلوك طريق « الوصول » ، فنفض من كبريائه ، لأنه كان متلهفاً على الذهاب الى حفلة دولة كاربليانو بأي شكل ... فبلع الاهانة وقال للفيكونتس :

— سيدتي ، لولا أن الأمر يتعلق بموضوع عاجل هام ، لما أتيت إليك وأثقلت عليك... فاغفري لي ، واسمحي لي بفرصة أخرى ، أراك فيها ... فاني مستعد للانتظار ...

نفخت حدة الفيكونتس شيئاً ما ، وقالت له :

— ليكن . تعال لتتعشى على مائدتي هذه الليلة ...

فلما كان المساء وجاء الى قصرها وجدها قد استردت اشراقها ورقتها ، فقادته الى قاعة المائدة حيث كان الفيكونت في انتظارهما ! وكانت المائدة وأدواتها على مبلغ من الفخامة والترف لم يكن يخطر للفتى ببال ... فالعصر عصر الأناقة في الطعام ... هذا الى أن الفيكونت معهود له بأن لذته الوحيدة في الدنيا هي الأكل ! فائتلفت للمائدة المزيتان ، مزية الكيف ومزية الكم في وقت واحد...

وقالت الفيكونتس لزوجها أثناء الطعام :

— هل ستأتي معي الليلة الى الأوبرا الايطالية ؟

— ليس أحب الى نفسي من هذا كما تعلمين يا عزيزتي ، ولكني للأسف مرتبط بموعد آخر ... فهل « داجودا » ليس معك الليلة ؟

— كلا ...

— إذن خذي المسيو دي راستنياك معك ...

فنظرت الفيكونتس الى أوجين وابتسمت ...



فى الاوبرا الايطالية

وأقلته مع الفيكونتس عربة أنيقة سريعة إلى مسرح الأوبرا الايطالية . وما دخل وراءها إلى مقصورة من المقصورات الأمامية حتى وجد نفسه هدفا للمناظير الكبيرة التى سلطت عليه من كل صوب ، فخيل اليه أنه فى مملكة من الممالك المسحورة

وقالت له الفيكونتس :

— انظر هاهى مدام دى نوسنجين فى مقصورتها التى تبعد عنا بثلاث مقاصير ، أما أختها الكونتس دى ريستو ففى الجهة الأخرى وبصحبتها مكسيم دى تراى

والواقع أن الفيكونتس كانت تذرع القاعة بمنظارها متظاهرة بعدم الالتفات إلى البارونة دى نوسنجين ، مع أنها لم تكن غافلة عن أى حركة من حركاتها . وأما الفتى يوجين دى راستنياك لم تكن له عينان إلا لتأملها والتحديق فى محاسنها ، وقد انشرح صدر البارونة لهذا الاهتمام الذى يبديه نحوها ابن عم الفيكونتس دى بوسيان الشاب الوسيم ذو الحسب . بيد أن الفيكونتس نبهته بقولها :

— إذا ظللت تركز فيها أنظارك على هذا النحو أثرت فضيحة ولغطا . ولن توفق فى المجتمع إذا كنت عازما على أن تلقى نفسك على الناس القاء كأنك تسقط فوقهم من حالق

— يابنت العم . لقد بذلت لى العون وأحطتنى برعايتك وحمايتك حتى الآن ، فهلا أتممت صنيعك لأننى أرى قلبى قد شغل هذه المرة

— بهذه المرأة ؟

— أجل ، والدولة كارلياتو ستقيم حفلا راقصاً ستحضره البارونة دى نوسنجين ، فأكون شاكراً لو قدمتنى للدوقة كى تدعونى إلى حفلتها الراقصة ، فيتسنى لى أن أقابل البارونة هناك وأضرب ضربتى الأولى

— لكن ، فيظهر أنك ستوفق فى هواك . فهاهنا دى مارساى صاحب البارونة مشغول عنها فى مقصورة الأميرة جلاتيون . فالبارونة تعانى فى هذه اللحظة نيران الغيرة . وليست هناك لحظة أصلح من هذه اللحظة للتقرب من امرأة ، ولاسيما إذا كانت امرأة رجل من رجال المال ، فهاتيك النساء جميعاً يحببن الانتقام حباً جما

— وماذا كنت تفعلين لو كنت فى مكانها ؟

— أتألم في صمت

— وفي هذه اللحظة دخل المقصورة الماركيز داجودا فأشرق وجه الفيكونتس اشراقاً دل ايجين على أنها تحب الماركيز حباً حقيقياً ليس من قبيل خلاعة الباريسيات ومجونهن الشائع . وتخلى الشاب للماركيز عن مقعده ، فابتسمت له الفيكونتس شاكرة هذا الصنيع الذي أملته اللباقة . ثم قالت للماركيز عند انتهاء الفصل الأول :

— أظنك تعرف البارونة دي نوسنجين معرفة تسمح لك بتقديم المسيو دي راستنياك اليها

— طبعاً . . وستسر كثيراً ولا شك بمعرفة الشيفاليه دي راستنياك

ونهض البرتغالي الجميل فتأبط ذراع الشاب وصحبه الى مقصورة البارونة ، فقال لها :

— لي عظيم الشرف ياسيدتي البارونة أن أقدم اليك الشيفاليه ايجين دي راستنياك ، من أبناء عمومة الفيكونتس دي بوسيان ، فقد كان تأثيرك فيه عظيما بحيث حلق على أجنحة أسباب السعادة له بتقريبه من موضع تقديسه

فابتسمت البارونة وأشارت الى الشاب بالجلوس في مقعد زوجها الذي لم يكن حاضراً تلك اللحظة ثم قالت له بلطف :

— لا أجد لدي الجرأة ياسيدي كي أطلب اليك البقاء معي ، فان الرجل الذي يسعده الحظ بقرب الفيكونتس دي بوسيان لايرضى عن قربها بديلا

فهمس لها الشاب ضاحكا :

— ولكن يبدو لي ياسيدتي أنني إذا أردت أن أرضي ابنة عمي ، فيحسن بي أن أبقى بجوارك . فقبل وصول الماركيز كنا نتحدث عنك وعن شخصيتك الممتازة

— أستبقى معي حقاً يا سيدي ؟ إن هذا يسرني كثيراً لأن أختي الكونتس دي ريستو أطرتك لدي كثيراً حتى أصبحت في أشد الشوق لاتعرف بك

— لقد خدعتك إذن ، فهي قد حرمت على بيتها

— وكيف كان ذلك ؟

— سأروي لك السبب ، واستميحك العفو ان أفضي اليك بهذا السر . فأنا جار والدك الفاضل في الخان الذي يقيم فيه . وكنت أجهل أن الكونتس دي ريستو ابنته . فبدر مني دون قصد اشارة اليه بحسن نية أغضبت شقيقتك وزوجها . وقد حجبت ابنة عمي الفيكونتس والدوقة دي لانجيه من العقوق . وسمعت بهذه المناسبة من الفيكونتس مقارنة طريفة بينك وبين شقيقتك علمت منها مبلغ حبك وبرك بهذا الوالد الفاضل . ولست أدري كيف لاتحب ، ولاسيما منك ، فهو يحبك حباً

— أشكرك كثيراً ياسيدي ، وأحسب أننا سنكون من خيرة الأصدقاء

وشرعت البارونة تسفه مسلك شقيقتها نحو والدها ، وكيف أنها قاست شخصياً آلاما جسيمة

حين حلها زوجها البارون على عدم استقبال والدها إلا فى الصباح

— انك ياسيدتى مثل الطيبة الملائكية ، وقد أعجبت بك قبل أراك لما سمعت به من فيض المحبة البنوية . ولكن لم أكن أتصور أبداً أن يبز جمالك الباهر صفات خلقك النبيل وقلبك الكريم . حتى إذا دخلت الليلة هذا المسرح ووقع نظرى عليك لم أستطع أن أحوله عنك ! فاضطرت الفيكونتس إلى لفت نظرى وصرفى عن التحديق فيك على هذا النحو . ولكنها لاتدرى إلى أى حد تجتذب محاسنك الأنظار . فهاتان العينان الساحرتان ، وهاتان الشفتان القرمزيتان ، وهذه البشرة الناصعة البياض ، وهذه الفتنة التى تشع من كيانك كله ... عفوك! إنى أهذى ، اعلم هذا ، ولكن دعينى بربك أمضى فى الهذيان ، لأنه يخفف بعض مابى من الهيان

وليس فى الوجود ماينشرح له صدر المرأة مثل سماعها عبارات الثناء . فأشد النساء ورعا وأعظمهن تقوى لاتكره هذا الحديث وإن حرم عليها أن تستجيب له . فغير غريب أن تشجع البارونة الشاب إعجبن بابتساماتها ، وهى تختلس النظر فى الحين بعد الحين إلى حيث يجلس دى مارساى فى مقصورة الأميرة جلاتيون — وهكذا ظل الشاب فى حضرتها يتلو عليها آياته ويطلق البخور بين يديها إلى أن حضر زوجها البارون ليصحبها إلى البيت

وما درى الشاب المسكين أن البارونة كانت شاردة الذهن وهى تتظاهر بالاصغاء اليه ، فقد كانت تنتظر من دى مارساى خطاباً من تلك الخطابات التى تمزق القلب وتفتت الأكباد . ولكن الفتى الريفى ظن أنه وجد حظوة لدى البارونة حقاً وصدقاً ، فعاد إلى الفيكونتس متهلل الأسارير ، فصحبها إلى عربتها ، ثم مضى إلى الخان وكأنه يطير فى الهواء من فرط السرور والاستبشار



أشجان والد

وما بلغ الفتى الخان حتى صعد السلم وثباً ثم طرق باب حجرة الأب جوريو طرقاً شـديداً ، وما دخل عليه حتى ابتدره بقوله :

— لقد رأيت مدام دلفين يابابا العزيز

— أين ؟

— فى الأوبرا الإيطالية

— وهل تمتعت بسهرتها ؟ حدثنى عنها

ورقد الرجل فى فراشه ، وسنحت للفتى الفرصة لـكى يرى الجحر الذى يعيش فيه والد تلك التى بهرته منذ قليل بترفها وبذخ ثيابها وزينتها . فلم تكن على النوافذ ستائر ، وآثار الرطوبة تبدو واضحة فوق الورق البالى الملصق فوق الجدران ، والفراش الذى يرقد فيه الشيخ بعيد عن توفير الراحة لجسده الواهن ، والأغطية القليلة عبثت بها يد البلى . فامتلأ الفتى امتعاضاً واشفاقا على الرجل . ولـكن الشيخ لم يلحظ لحسن الحظ ما ارتسم على وجهه ، لأنه كان غارقا فى خواطره التى تحوم دائماً حول بنتيه ، فسأل أيجين فى طيبة تقرب من البلاهة :

— أيهما وجدتها أقرب إلى القلب ، مدام ريستو أم مدام دى نوسنجن ؟

— بل أفضل مدام دلفين لأنها تحبك حباً جما

فأخرج الشيخ ذراعه من تحت الغطاء وضغط على يد الشاب بحرارة وهو يقول له فى تأثر بالغ :

— شكراً لك . وماذا قالت لك عنى ؟

فأعاد عليه الفتى ماقالته ابنته عنه مزوقا منمقاً كى يجبر خاطره الـكسير ، والشيخ مصغ اليه كأنه يستمع إلى وحى مقدس ، فلما فرغ الفتى قال :

— أجل ، ان هذه الطفلة العزيزة تحبنى كثيراً . ولـكن لاتصدق ماقالته لك فى حق أختها انستازى . فالأختان بينهما منافسة شديدة أيهما تحبنى أكثر من الأخرى . وأنا أعلم عزيزتى أن مدام دى ريستو تحبنى حباً شديداً ، فأنا أبوهما وأعرف قلبيهما ، ولو كان لهما زوجان من ذوى القلوب الكريمة والسرائر الطيبة لـكنت أسعد خلق الله . ولـكن السعادة الكاملة لم تكتب لأحد فى هذه الحياة الدنيا . . . فقد كان يكفينى من الدنيا أن أعيش فى جوارهما ، لا لشىء



« ونادى الأب جورجيو : كيف تعيش في مثل هذا المكان ؟ »

إلا لأراهما تغدوان وتروحان ، فأسمع صوتهما وأحس بأنس قربهما ... ولكن خبرني ، هل كانتا في زينة طيبة ؟

— أجل ... ولكن خبرني أنت ياسيد جوريو ، كيف تكون لك بنتان على هذا القدر من الغنى ، وتعيش أنت في مثل هذا المكان ؟..

— وما حاجتي إلى أكثر من هذا ؟ ان حياتي قد اختزلت في هاتين البنتين . فإذا نعمتا بالحياة ، فأنى ناعم البال ، وإذا كانت لهما بسط من حرير ، فما يضيرني أن تكون أرضي عارية ليس فوقها بساط . وإذا كانت ملابسهما من حرير ودمقس واستبرق ، فما يضيرني ماذا أكتسى وأين أضع رأسي ! فأني وايم الحق لا أشعر بالبرد إذا هما نعمتا بالدفء ، ولا سبيل للأحزان إلى نفسي ماشعرتا بالبشر . . . ولكنك لاتدرك معنى ما أقوله لك الآن إلا حين تغدو أبا ، فحينئذ ستعرف قيمة التافه من بغام بنيك ، وسيستبد بك الزهو لأنهم خرجوا من صلبك ! وستحس أن دمك يتحرك في عروقهم ، وأن الدم الذي في عروقك يضطرب بانفعالاتهم ، وأن أعصابك تتحرك بحركات جوارحهم وخطو أقدامهم ... فنظرة حزن أو كآبة من إحدى هاتين البنتين تكفي لتجميد دمي ! فكيف تأسى على حياتي ، وأنا رجل أحيى بهذا الحب الأبوي ثلاثة حيوات لاواحدة وكفى ! أجل ياصديقي ، انى لا أبغى شيئاً سوى سعادة بنتي . فدلفين هذه إذا وجدت رجلا يسعدها ويشعرها بالنشوة التي تحسها المرأة إذا شعرت أنها محبوبة ومشمولة بإخلاص ... أقول أني مستعد أن أمسح بنفسي حذاء هذا الرجل . . وأن أكون له بمثابة الخادم من السيد ! ولكن وا أسفاه ! فقد علمت من وصيفتها أن هذا السيد دي مرساي إن هو إلا كلب حقير ، فهو يسومها عذاب الهجر ، حتى لقد قام برأسي أكثر من مرة أن ألوى عنقه فأخنقه بيدي ! ياله من بهيم : أمثل هذه الجوهرة الحلوة بين النساء لاتعبد حباً ! إن صوتها كغناء البلبل ، وقدها كأنموذج الفنان الكامل ... ولست أدري ماذا قام برأسها حتى رضيت بهذا الألزاسي المتكبر دي نوسنجين بعلا لها من دون الرجال جميعاً .. لقد كان يلزم لكلتيهما زوجان طيبان جميلان لطيفا المعشر ... ولكنهما تصرفتا على هواهما . . .



وكان الأب جوريو في « مرافعته » هذه رائعاً في بلاغته ، لأنها بلاغة الحديث الصادر من القلب تماماً . فما أقدر العواطف الصادقة على احداث المعجزات ، فهذا الرجل النزر الكلام ، الثقيل اللسان ، قد جعلت منه عاطفته الكبيرة إنساناً رائعاً وخطيباً مفوهاً ، فانطلق لسانه ، وصار في نبرة صوته غنى ، وأشرق وجهه وخلقت له شخصية قوية من العدم ... فأخذ الفتى بما رأى منه وما سمع ، فقال له :

— ألعله لايسوؤك أن تعلم أن مدام دلفين ستقطع صلتها بهذا السيد دي مرساي ، لأنه تركها ليتصل بالأميرة جالاتيون ... وأني وقعت منذ الليلة في هوى مدام دلفين ... وأني قد

لقيت قبولا لديها ، وأنها دعتنى لزيارتها عصر السبت ، بعد غد ...

— لن تجد أحب الى منى ياسيدى إذا حظيت برضاها عنك ! فأنت طيب السريرة ، ولا أحسبك ستسومها العذاب . أما إذا أسأت اليها فانى قاتلك !.. آه ! أرانى أخرف،فعفواً... وماذا قالت لك عنى ؟..

— حملتنى اليك قبلة ...

— يارعاك الله ... طابت ليلتك ياجارى العزيز ، فالبرد فى حجرتى شديد ، وأرانى أبقيتك أكثر مما ينبغى ... فرافقتك السلامة ... وجزاك الله عنى خيراً ، فقد أسعدتنى بهذا الحديث عن أحب خلق الله الى قلبى ... ولن أنسى لك هذا الفضل ، بل انى سأسعد كلما وقع نظرى عليك ، لأنك تحمل لى شيئاً من ريح ابنتى العطر !

... وآوى الفتى الى فراشه ، وهو يقول فى نفسه :

— يا للرجل المسكين ! إن حاله تفتت الأكباد وتلين القلوب التى قدت من حجر صلد ... وابنته التى يعبدها لم تذكره لى بكلمة !

والواقع أن الأب جوريو قد سعد فعلا بهذا الحديث ، ولا سيما لأنه اكتشف فى جاره الشاب صديقاً حقيقياً يكاشفه بنجوى نفسه ويفهم عنه فقد نشأت بينهما تلك الصلة الوحيدةالتى يمكن أن تصل هذا الشيخ بأى إنسان على وجه البسيطة : وتلك الصلة هى الاهتمام المشترك باحدى بنتيه

ويقولون ان القلوب تحسن ضرباً من الحساب والاستدلال لا يحسنه منطق العقول ، وانها لا تخطىء أبداً فى معرفة أهدافها ، وهذا قول يطابق الواقع تمام المطابقة .. فهذا هو الأب جوريو وقد حرم نعمة قرب بنتيه يحدس دون تفكير فيصيب الحدس ان جاره الشاب إذا توثقت علاقات الهوى بينه وبين دلفين ، فان ذلك سيؤدى بطبيعة الحال الى زيادة حظوة الوالد لدى ابنته ويوثق اتصاله بها ..



وفى الصباح التالى وقد جلس الجميع الى مائدة الافطار جعل الأب جوريو يلقى على جاره الشاب نظرات تفيض بالحنان والتملق ، حتى لقد لاحظ النزلاء أن القناع الجامد قد زال عن وجه الشيخ الذى لم يكن يلقى الى أحد منهم بالا

أما الفتى فانه كان قد جال بفكره قبل النوم فى الميادين الشتى التى تنبسط أمامه ، وفكر فيما فكر فى فيكتورين تايفير وبائنتها الضخمة التى حدثه عنها فوتران ، وفى هذا الصباح التقت نظراته بنظرات الفتاة صدفة ، وشعرت الفتاة بالاعجاب بأناقة الفتى فى زيه الجديد القشيب .. وأدرك الفتى من نظرتها أنه غير بعيد عن قلبها ولا عن أحلام خلوتها ، وأحس كأن منادياً يناديه من فج عميق :

— ثمانمائة ألف فرنك يا هنا بعد عمولة فوتران !

ولكنه أصم أذنيه عن هذا النداء وعاد الى التفكير فى ذكريات الأمس الجميلة وما حسب أنه قد أصابه من حظوة فى عينى البارونة دلفين دى نوسنجين فقال لوالدها الذى كان بجواره على المائدة :

— كانوا يقدمون بالأمس فى الأوبرا الايطالية رواية حلاق اشبيليه لروسيني . ولم أسمع وايم الحق أعذب من هذه الموسيقى . الا إن من لديه مقصورة دائمة فى الأوبرا الايطالية لسعيد

فتلقف الأب جوريو هذه الكلمة كما يتلقف الكلب المدرب إشارة من مولاه .. ثم استطرد الشاب هامساً فى أذن الشيخ :

— ولعلك ستلتقى مدام دى نوسنجين قريباً ، فثق أنها ستلقاك بذراعين مفتوحتين .. لكي تعرف منك المزيد عن شخصي .. وقد نما الى أنه يهمها كثيراً أن تدعى الى بيت بنت عمى الفيكونتس دي بوسيان ، فلا تنس أن تخبرها أن حبها عندى كفء لإنالتها هذه الأمنية



بداية حب

وخرج ايجين من الخان بعد الافطار مباشرة ، فجعل يصرف الوقت فى النزهة والتسكع،لأنه كان يضيق بهذا النزل الكئيب ، ولأنه كان مكفوفا عن الاستقرار بتلك الحى المنمرة مداخله ، والتى يعرفها تمام المعرفة احداث الشبان حين تتلألأ أمام مخيلتهم الناشئة أحلام خلابة فلما عاد إلى الخان وجد الأب جوريو فى انتظاره ، فما رآه داخلا حتى قال له وهو متهلل الوجه :

— هاك خطابا منها ... يا الحظ الجميل !

وفض ايجين الخطاب ، وقرأ السطور التالية :

« سيدى

« قال لى والدى أنك تحب الموسيقى الايطالية . وإنه ليسعدنى أن تعرفنى بقبول مقعد فى مقصورتى ، وستقدم يوم السبت أوبرا جيلة ، وإنى واثقة أنك سوف لاترفض هذه الدعوة . والبارون دى نوسنجين ينضم إلى فى التوجه اليك بالرجاء لتناول العشاء تلك الليلة . فاذا تفضلت بالقبول أعفيته من الواجب الزوجى الثقيل الذى يحتم عليه مصاحبتى إلى الأوبرا . . . وتقبل تحياتى

دلفين دى نوسنجين »

فقال الفتى فى نفسه :

— مامن امرأة تلقى نفسها هكذا على شاب من أول وهلة. فلا ريب أنها ترى إلى استغلال فى إثارة غيرة صاحبها التاجر دى مرساى كى تسترده . . . فهى المكايدة والانتقام لا الحب والهيام ...

وقطع الأب جوريو عليه حبل التفكير بسؤاله :

— فيم تفكر ؟

وكان قد غاب عن علم الفتى مبلغ ما للمظاهر من سلطان على نساء المجتمع فى باريس ، حتى أن زوجة رجل لايعدو أن يكون من رجال المصارف تطيب نفساً بالاقدام على أى تضحية فى سبيل الوصول إلى شرف التردد على قصور الأشراف المعروفين فى ضاحية سان جيرمان . ولم يجد الفتى مانعاً من الاستفادة من الظرف المواتى ، فأجاب على سؤال الأب جوريو بقوله :

— طبعاً سأذهب ...

وهكذا ساقه حب الاستطلاع إلى دار مدام دى نوسنجين ، فى حين أنها لو كانت تجاهلته

أو ازدرته لـكانت العاطفة هي باعثه على هذه الزيارة وليس مجرد حب الاستطلاع ، ومع ذلك فانه لم يخل من تشوق ولهفة على الذهاب فى الموعد المضروب فى اليوم التالى

ووصل راستنياك إلى شارع سان لازار ، فوجد دار البارون واحدة من تلك الدور الجديدة التى تنم عن ثروة مستحدثة ، وهى مزوقة ومزركشة فى تكلف وإسراف . وكانت البارونة جالسة متكئة فى صالون صغير يشبه فى زينته المقاهى إلى حد كبير . فحز هذا فى نفس الشاب الذى كان يحسب أن مجرد حضوره كاف لادخال البشر على قلب أى امرأة . لهذا قال لها :

— ليس لى كبير حق فى معرفة أسرارك يا سيدتى ، ولـكن فى مرجوى على الأقل أن تصارحينى ببساطة إذا كان وجودى معك يثقل عليك

— بل ابق .. فانك إذا مضيت بقيت وحدى ، ذلك أن نوسينجين سيتعشى فى المدينة ، وأنا لا أريد أن أنفرد بنفسى ، فالتسلية لازمة لى أشد اللزوم

— ماذا بك ؟ خبرينى وإلا ظننت أن لى ضلعاً فى همومك

— يا صاحبى هذه هموم ناشئة عن اختلافات بينى وبين زوجى . ألم أقل لك أمس الأول إننى لست سعيدة فى حياتى ؟ إنى مقيدة بقيود من ذهب ...

— وماذا ينقصك ؟ فأنت جميلة وشابة ومحبوبة وغنية..

— دع الحديث عن جانباً . فقد أتيت لتتعشى على انفراد ثم نمضى معاً لسماع الموسيقى . خبرنى هل تروق زينتى فى نظرك ؟

وقامت لتريه ثوبها من خلف ومن قدام ، وهو من الكشمير الأبيض تزينه نقوش فارسية من آنق ما يكون

— كم أتمنى أن تكونى لى وحدى ، فأنت فاتنة !

— لن تهنأ بهذا لو تحقق ، فانى امرأة شقية

— ما أشوقنى الى معرفة علة كآبتك

— لو صارحتك بها لتجنبتنى

— اسمعى ! إذا كانت تثقل على صدرك الهموم فلن تجدى خيراً منى للافضاء بها اليه ! فأنا أريد أن أبرهن لك أنى أحبك لذاتك ، فإما أن تكاشفينى بآلامك حتى أجتهد فى القضاء عليها ولو كلفنى قتل ستة رجال ، وإلا فارقتك إلى آخر الزمان

فخطرت لها فكرة يائسة جعلتها تدق جبهتها بيدها وهى تصيح :

— سأضعك موضع اختبار . أجل ، لم يعد أمامى سوى هذه الوسيلة بالذات

ودقت الجرس فدخل الوصيف وأمرته بإعداد عربة البارون لـكى تخرج فيها . ثم نهضت

وأشارت إلى إيجين أن يتبعها وهو يحسب نفسه في حلم ، فاستقلت معه عربة زوجها وصاحت بالسائق :

— الى الباليه رواياك بالقرب من المسرح الفرنسي

وكانت طول الطريق تبدو مضطربة ورفضت الاجابة على الأسئلة الكثيرة التي ألقاها عليها ايجين لما ركبه من الحيرة . .

فلما وقفت العربة حدقت البارونة في الشاب ثم سألته :

— أتحبني بإخلاص ؟

— لا شك في ذلك

— ألى درجة عدم إساءة الظن بي مهما طلبت اليك ؟

— نعم . . ولا ريب

— وهل أنت مستعد لاطاعتي طاعة عمياء ؟

— كل الطاعة . !

— هل تتردد على موائد اللعب ؟

— على الاطلاق

— آه . إني أتنفس الصعداء لهذا الجواب ، فان معنى هذا أنك ستربح . فخذ هذه المائة فرنك ، واعلم أنها كل ما تملكه تلك المرأة التي ظننتها في أوج السعادة . فاصعد الى بيت من بيوت الميسر الموجودة في هذه المنطقة وغامر بالمائة فرنك في لعبة يسمونها الروليت ، وافقد كل شيء أو رده الى ستة آلاف فرنك ، وأعدك أن أحدثك عن أشجاني عند عودتك

— ستعطفي الأبالسة اذا كنت قد فهمت شيئاً مما قلته لي الآن . ولكني مطيع أمرك كما وعدتك . . .

وقال امني في نفسه وقلبه يرقص طرباً بين جنبيه :

— أراها تتآمر معي ، ومعنى هذا أنها لن تجرؤ على صدي بعد الآن . . .



المائدة الخضراء

وأخذ منها ايجين كيس النقود الأنيق ، واتجه إلى المنزل رقم ٢٩ بعد أن دله عليه أصحاب الحوانيت في الشارع . وصعد السلم ، وسأل عن « الروليت » ، فقاده النادل إلى مائدة طويلة ولفت الفتى أنظار زبائن المائدة الخضراء المدمنين ، لأنه كان بادي الجهل باللعبة ، فالتفوا حوله متطلعين ، فإذا به يسأل في سذاجة :

— أين ينبغي أن أضع النقود ؟

فأجابه شيخ عليه وقار الشيب :

— إذا أنت وضعت مبلغاً على رقم من هذه الأرقام الستة والثلاثين ، ووقفت العجلة على هذا الرقم ، أخذت مبلغك مضاعفاً ستا وثلاثين مرة

فوضع ايجين المائة فرنك على الرقم الدال على عمره ، وهو واحد وعشرون . ودوت في القاعة صيحات الدهشة قبل أن يتبين الفتى علة هذه الضجة .. فقد ربح وهو لايدرى !

فقال له السيد المسن :

— خذ مالك وانصرف ، فإن المرء لايربح مرتين متواليتين على هذا النهج

وتناول ايجين المال ، فانتضر منه ثلاثة آلاف وستمائة فرنك ، ووضعها بكل سذاجة على اللون الأحمر . ودارت العجلة وكسب مرة أخرى ، فأعطاه الوكيل بالمائدة ثلاثة آلاف وستمائة فرنك أخرى . ومال الشيخ على أذن الفتى وقال له بإلحاح :

— لقد ربحت سبعة آلاف ومائتي فرنك ، فإذا أردت نصيحة خالصة فانصرف لتوك ، فإن اللون الأحمر قد خرج حتى الآن ثماني مرات متوالية . وإذا كان في قلبك ميل إلى الرحمة ففي وسعك أن تقدر نصيحتي قدرها بأن تخفف وطأة البؤس عن محافظ سابق من رجال نابليون أصبح في حاجة ماسة إلى المساعدة

وفي غمرة هذا الجو أعطى الفتى الرجل مبلغاً من المال يصل إلى مائتي فرنك تقريباً وانطلق بالسبعة آلاف فرنك وهو يكاد يكون أجهل بالعاب المائدة الخضراء منه حين أقبل عليها ، ولكنه كان شديد السرور بحظه المواتي . فلما دخل العربة التي تنتظره فيها البارونة وأقفل بابها قال لها وهو يريها السبعة آلاف فرنك :

— والآن إلى أين ؟

فاحتضنته دلفين لشدة فرحها وقبلته بحرارة ولكنها لم تكن قبلة صادرة عن رغبة أو عاطفة غرام ، وهتفت به :

— لقد أنقذتني . .

وكانت دموع الفرح تنهمر على خديها حين استطردت لاهثة :

— والآن سأحل لك بالمسألة كلها ، فأنت صديق ، أليس كذلك ؟ انك تظنني غنية تحت يدي المال بغير حساب ولا ينقصني شيء . فاعلم إذن أن البارون دي نوسنجين لايدع لي التصرف في درهم واحد : فهو يدفع بنفسه نفقات البيت ونفقات عرباتي ومقاصيري في المسرح ويسمح لي بميزانية ضئيلة جداً للثياب والزينة ويلاحقني بالحسابات الدقيقة والمراجعة في كل باب من أبواب المصروفات وكبريائي تحول دون التوسل اليه أو بيع عواطفي له باظهار التودد والهيام في نظير الحصول على مزيد من المال منه . مع أن بائنتي تبلغ سبعمائة الف فرنك . لقد تزوجته وأنا صغيرة السن بحيث كانت عبارات طلب المال — ولو كان مالي — تقف في حلقي . فكنت أعتمد على مايمنحني إياه أبي . فلما غاض هذا المعين تورطت في الدين . حتى أصبح الزواج في نظري خيبة أمل مرة ، فكرهت هذه الحياة المشتركة بحيث لا أتردد في الانتحار إذا أجبرت على الحياة حياة تخالف مانحن عليه الآن من اختصاص كل واحد منا بمخدعه الخاص . . . فهو رجل كز فظ . وتصور يا صديق مبلغ تعاستي حين أبى اليوم أن يعطيني ستة آلاف فرنك ، مع أنه يعطي هذا المبلغ كل شهر لخليلته ، التي ليست إلا فتاة من راقصات الأوبرا الخاملات ... لقد خطر لي أن أنتحر .. فاذا أصنع ؟ ألجأ إلى أبي ؟ انه لايستطيع لي الآن شيئاً ، فقد جردناه — أنا وأختي انستازي — من كل ما كان لديه ، وأنا أعلم أني لو طلبت اليه هذه الستة آلاف فرنك لأقدم على بيع لحمه إن استطاع ليوفر لي هذا المبلغ . . ولكني سأزعجه في غير طائل ، فيزيد همه ويستفحل ألمه . وهأنتذا أنقذتني من الفضيحة والموت ... وهذا ياسيدي تفصيل مارأيتني أقدم عليه من الفعل المستغرب . . . ولا تظنني وحدي في هذا الوضع الشاذ ، فنصف عقائل باريس يعانين ما أعاني ، ويثقل عليهن العيش في بيوتهن ، وأن بدين أسعد الخلق وأكثرهم بحبوحة ويساراً . بل إني أعرف من هن أشد شقوة مني ، فثمة سيدات يجمعن أولادهن ، لكي يتمكن من شراء ثوب جديد ، أو يزورن في « فوانير » ثقلات البيت . أما أنا فاستنكف من هذا الخداع ، ولا أقبل أن أنيل زوجي ماهو حق له مادمت لا أضمر له الحب ! مع أن نوسنجين يتمنى رضاي ، وهو على استعداد إذا دفعت الثمن أن يغرقني في الذهب . . ولكني أفضل أن أبكي على صدر صديق حنون من أن أبيع نفسي لهذا الزوج الفظ . . . وشكراً لله ، فإن دي مارساي لن ينظر إلى القبلة نظرته إلى امرأة دفع لها ثمن الهوى !

ثم غطت وجهها بيديها حتى لا يرى الشاب دموعها ، ثم التفتت اليه وقالت :

— عدني أنك لن تستخدم ضدي سري هذا . . .

فلما وعدها تناولت يده وشدت عليها ، ثم أعطته ألف فرنك من السبعة آلاف ، فاحمر وجه الفتى ورفض بشدة ، بيد أنها قالت له في إصرار :

— سأشعر إذا لم تكن شريكي أنك عدوي

— سآخذها اذن ، ولكن عديها مالا مدخراً تطلبينه متى شئت

— ليكن ، على شرط واحد : أن تقسم لي ألا تعود الى المائدة الخضراء أبداً . . رباه ! كيف أغفر لنفسي أنني أفسدتك وعرضتك للغواية !

ووصلت بهما العربة الى دار البارونة ، فأخذته الى جناحها الخاص ، واستمهلته حتى تكتب خطاباً نحته له بأنه خطاب عسير . فهي تريد أن ترسل الستة آلاف فرنك الى مسيو دي مارساي ، فهو قد أقرضها إياها وهي كارهة ، لأنها لا تريد أن ينظر اليها نظرته الى بائعة هوى . . . فقال لها ايجين :

— ولماذا تكتبين ؟ ضعي أوراق النقد في مظروف ، وأغلقيه واكتبي عليه العنوان . . وكفى . . . ثم أرسليه مع وصيفتك

— لله ما أحسن رأيك . ولا عجب ! فتلك أساليب أبناء اليونات تهديهم اليها بصيرة نافذة وفطرة سليمة رائعة

وفعلت ما أشار به عليها ، وأرسلت وصيفتها تيريز بالخطاب الى دار « دي مارساي » . وكان العشاء قد أعد ، فقاما الى قاعة المائدة ، فاذا مائدة فاخرة حقاً . وقالت البارونة وهي تجلس قباله :

— في جميع الليالي التي نذهب فيها الى الأوبرا الايطالية ، أنت مدعو للعشاء معي هنا ، ثم تصحبني الى الأوبرا . . .

— كان يسرني أن أتعود هذه الحياة الناعمة الرخية ، لو أنها تدوم ، ولكن ماذا أصنع وليس لطالب فقير مثلي أن يقدر على هذا المستوى العالي من الحياة ؟

— لا تقلق من هذه الناحية ، ولكن لك في مسألتي عبرة : فمن كان يقدر أن أموري ستسوى على هذا النحو فأنتقل من هاوية الشقاء الى قمة السعادة ؟

وتناول ايجين يد البارونة وضغط عليها شاكراً . . .

وفي مقصورتها بالأوبرا ، تشابكت يداهما معظم الوقت ، يتناجيان بلمسات كلما حركت أشجانهما الموسيقى الرقيقة . وكانت هذه السهرة من أمتع الليالي وأكثرها سحراً ونشوة للشابين . حتى إذا انتهت الرواية ، أصرت البارونة على توصيل الشاب إلى قرب بيته ، مع أنها ظلت تصده وتذوده طول الطريق عن قبلة كان ينازعها إياها . . . وقد شاقه طعم القبلات التي غمرته بها قرب الباليه رويال ، عندما عاد اليها بما كسب من النقود

وتكدر ايجين لهذا التغير الذي جعلها تضن عليه بقبلة يلتمسها وهي التي منحته قبلات

بلا التماس منذ ساعات ... فلما سألها تفسير هذا التناقض الظاهر ، قالت له :

— تلك كانت قبلات عرفان الجميل ، لما صدر عنك من إخلاص غير متوقع . . أما الآن فالقبلة معناها الوعد والتأميل . . .

— وهل ترفضين أن تصدقي وتعديني بالسعادة ؟

وبدا عليه الغضب ، وندت منه إشارة ضيق وتبرم ، فمدت اليه يدها في دلال يذيب قلب العاشق الولهان كي يقبلها ، فرفعها الى فمه في اضطراب وارتباك سر لها قلبها ، لأنها استدلت من ذلك على عشقه لها عشقاً عميق الجذور في نفسه . . . فقالت له وهو يغادر العربة :

— الى اللقاء يوم الاثنين ، في الحفلة الراقصة عند الماركيزة كاربليانو . . .

واستأنف الفتى طريقه على قدميه ، في صمت الليل وضياء القمر ، وكأن في صدره عصفوراً يغني . . .



الدرس الثالث

وكان الأب جوريو قد ترك باب غرفته مفتوحا كما ترك شمعه مضاءة حتى لا ينسى إيجين عند عودته فى ساعة متأخرة ان يدخل اليه توا فيحمل اليه آخر الأخبار عن ابنته وكيف بدت تلك الليلة والى أى حد كان تمتعها بالسهرة والسماع . ولم يخف إيجين عنه شيئاً مما حدث . فأخذت الشيخ نوبة من الغضب والحمية وصاح :

— إنها تظنانى معدما . وهذا خطأ محض ، فما تزال فى حوزتى ثروة تمدنى بدخل سنوى يصل الى ألف وثلاثمائة فرنك . يا الهى ! لماذا لم تأت البنية المسكينة الى أبيها ، ولماذا حلت فى صدرها الصغير اليافع كل هذه الآلام دون ان تشركنى فيها ؟ انى كنت خليقاً أن أبيع جانباً من هذا الدخل ، فأنا رجل قليل المطالب ضئيل الأرب فى متاع الحياة ، ولماذا لم تبادر باخبارى فى الحال بما تعانيه ابنتى من ضيق ؟ وكيف طاوعك قلبك يا جارى العزيز أن تتآمر على المائدة الخضراء بفرنكاتها المائة ؟ إلا انه دون هذا وتنفطر أكباد غلاظ وقلوب شداد ! أهذه إذن هى الزيجات الناجحة والمصاهرة التى ترفع الرأس ؟ والله لو ملكت رقبتى زوجى بنتى لما تركتها يجيشان لحظة واحدة ولخنقتها خنقا ! يا إله السماء ! أتقول انها بكت ؟ هل بكت حقاً ؟

— نعم ورأسها على صدرى

— أعطنيه ! أعطنيه حالا ! ليت عليه قد سقطت دموع ابنتى أنا ؟ دموع عزيزتى دلفين التى لم تبك أبداً وهى طفلة ، لأننى لم أكن أمنعها شيئا . سأشترى لك صداراً غيره ، فلا تلبسه ودعه لى ! إنها صاحبة الحق فى استغلال ثروتها الخاصة كما نص على ذلك فى عقد الزواج . وسأذهب الى المحامى منذ الصباح وأطلب حساباً دقيقاً من هذا الزوج الغادر عن أموال ابنتى . أجل اننى لقد أصبحت الآن ذئباً عجوزاً بلا أسنان ، ولكنى سأسترد ما سقط من أسنانى لأؤدب هذا الوغد . . !

— خذ أيضاً هذه الألف فرنك وضعها فى الصدار لأنها أصرت أن آخذها مما ربحت لها ، فاحتفظ لها بها

فرشق الأب جوريو ايجين بنظرة فياضة بالامتنان وتناول يده فشد عليها وأسقط عليها دمعة دافئة وهو يقول له :

— ثق يا بنى أنك ستصادف النجاح فى أمورك ، لأن الله عادل ، ولأن أمثالك فى الدنيا

قليل ، فهل لك أن تكون لي بمثابة الولد فيصبح لي ابن وبنتان ؟ اذهب الآن ونم ، فإنك مستطيع في هذه الفترة من حياتك أن تنام ملء جفنيك ، لأنك لم تصبح بعد أبا .. لقد بكت ، بكت ، هي بكت . وحأنذا أتلقى هذا النبأ الزلزال في حين أني كنت وقت بكائها مشغولا في تناول الطعام كأي حيوان بهيم

فلما أوى الشاب الى حجرته واستعد للرقاد جعل يقول في نفسه :

— لعمرى من الخير ان يحيا الانسان معتصما بالشرف والاستقامة فان راحة الضمير هي النعمة الكبرى في الحياة . .

وفي اليوم التالي ذهب ايجين الى دار الفيكونتس دي بوسيان كي يصحبها الى الرقص المقام في دار الماريشالة دي كاريليانو ، حتى تقدمه اليها . وفي صالون الماريشالة تهلل وجهه عندما وقعت عيناه على دلفين دي نوسنجين بين الحاضرات وتبين الفتى في هذه الحفلة أي مزية حصل عليها فارتفع بها قدره اذ اشتهر بين الناس بأنه ابن عم الفيكونتس دي بوسيان ، وأضف الى هذا ما تناقلته الألسن من توثق العلاقة بينه وبين البارونة دي نوسنجين الحسناء ، فأصبح موضع الحفيظة والحسد من كثيرين من الشبان ، وطرق سمعه طرف من أحاديثهم عنه فانتفخت أوداجه

وأجدى هذا عليه من جهة أخرى لأن دلفين خشيت أن تفقده إذا هي تدللت عليه كثيراً فوعدته عند الانصراف بتلك القبلة التي منعته إياها في المرة السابقة

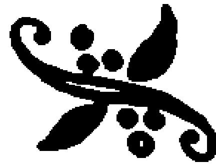
وفي تلك الحفلة قدمته الفيكونتس الى كثيرات من العقائل وتلقى منهن دعوات كثيرة للتردد على صالوناتهن ، فأضحى في لحظة واحدة يملك جواز المرور الى أرق الأوساط في العاصمة الفرنسية

فلما كان الصباح وجلس نزلاء الخان الى مائدة الافطار ، جعل يقص على مسمع منهم على الأب جوريو ماالقيه من توفيق في ذلك الحفل ، فابتسم فوتران ابتسامة خفيفة وقال :

— وهل تعتقد أنه يمكن لشاب أن ينجح في المجتمع العالي إذا ظل مقيما في هذا المكان الحقير وفي هذا الحي المتواضع ؟ ألا فاعلم ياصديقي الشاب أنك إذا رمت النجاح حقاً والتبريز في المضمار الاجتماعي،أنه ينبغي لك ثلاثة جياد ، وعربة لنزهة الصباح ، وأخرى لسهرات المساء ، وتلك وحدها لاتكلفك أقل من تسعة آلاف فرنك يضاف اليها ثلاثة آلاف أخرى في السنة للطرزى وستمائة فرنك للعطور ، وخمسمائة فرنك للأحذية ومثلها للقبعات ، أما الغسالة فلا تكلفك إلا ألف فرنك ، فالشبان المتأنقون يحرصون أشد مايحرصون على ارتداء الأقمصة في غاية من النظافة ومجموع هذه النفقات أربعة عشر الف فرنك سنويا لايدخل فيها ماينبغي أن ينفق من سعة على مائدة القمار وفي الهدايا التي تقدم في المناسبات ، فخذ كلامي هذا قضية مسلمة لأني جربت هذه الحياة بنفسي فيما مضى ، ووجدتها لاتتيسر بأقل من خمسة وعشرين الف فرنك . ثم لاتنس أنه ينبغي أن يكون لك وصيف أنيق مهذب ، أم ترى سيلوم كريستوف خادم خاننا الأزل بحمل رسائل الغرام ؟ وهل ستكتب تلك الرسائل في أوراق الكراسات المدرسية ؟

ان هذا سيكون بمثابة انتحار اجتماعي لوقفته ، فصدق نصيحة صديق مخلص يحفل وطابه بتجارب العمر ، وتخير منذ الآن لنفسك احدى خطتين : اما حجرة في السطح وكدح في سبيل العيش ، واما خطة أخرى تختلف من نمط هذه الحياة كل الاختلاف

وغمز فوتران بعينه إلى جهة الآنسة دي بايغير ، على سبيل تذكير الشاب بما تحدثنا فيه من أمرها



إذعان

والحق أن إيجين دى راستنياك كان فى موقف دقيق محير ، وقف مثله معظم الشبان العاشقين: فالبارونة دلفين دى نوسنجين عرضته على درجات الجحيم التى يمر بها أهل الهوى الصادق، واستخدمت فى ذلك أقصى فنون السياسة الانثوية التى تعرفها باريس . فهى بعد أن اكتسبت فى نظر الكافة سمعة الاستئثار بعواطف ابن عم الفيكونتس دى بوسيان ، لم تنله من نفسها ما كان يؤهله له ظن الناس من أمره معها . فظلت نحواً من شهر تلهب حواسه وتلعب بها ، حتى كاد ييأس من حبها

فهل كان هذا تدللا من البارونة ، أم تلاعبا ، أم هو حساب مقصود وخطة موضوعة ؟

ربما كان الأمر على خلاف هذا اطلاقاً . فمن الجائز أنها بعد أن قربت الفتى ، وأحست له عليها تأثيراً كبيراً ، تحركت كبرياؤها فنعتها من السلطة الأخيرة . كما أنه من الجائز أيضاً أن تتأنى البارسية كثيراً قبل الاستسلام النهائى لعاشقها ، حتى تمتحن اخلاصه وتعرف حقيقة ما ينطوى عليه قلبه . وهذا هو الاحتمال الراجح على سواه ، فقد خابت آمال البارونة فى عشقها الأول ، ومنيت بفشل ذريع ! فلها العذر كل العذر إذا لزمت الحذر . يضاف إلى هذا أنها قد تكون استشفت فى الفتى بعد نجاحه الاجتماعى الخاطف ميلا الى الغرور والاستهانة بقيمة الحظوة عندها ، فأرادت أن تفرض احترامها على شاب لا يزال فى حداثة السن ، حتى ترده الى حسن التقدير ، فلا يظنها امرأة سهلة تبذل نفسها لكل طارق يدق باب قلبها ، أو باب مخدعها

ومهما يكن من أمر هذه الأسباب أو المبررات ، فالحقيقة التى لا شك فيها على كل حال أن دلفين مطلت الفتى الوصال ، ولعبت بعواطفه ، ولذ لها هذا اللعب ، كما يلذ الهرة أن تلعب بفريستها ، واثقة من النصر ، ومن وقوع الفريسة بين براثنها فى أى وقت تشاء .. ولم يشأ إيجين أن تكون خاتمة مغامرته الأولى فشلا محضاً ، فلزمها ولم ينفض يده منها رغم ما لقيه من عذاب أليم

ولكن هذه الفترة التى قضاها الفتى فريسة الشد والجذب والمنع والمنح كلفته تلك العلاقة من المال التى كانت قد تجمعت بين يديه بثمن غال من تضحيات الوالدة والشقيقات . وكم من مرة تمل عليه فيها ضيق ذات اليد فخطر بباله أن يضرب عرض الحائط بصوت ضميره ويستسلم لما عرضه عليه فوتران من الزواج بالآنسة دى تايفير ، وحدث فعلا فى لحظة من لحظات القنوط ــ وكان وحيداً مع مدام فوكير ومدام كوتير وفيكتورين ــ ان رشق الفتاة بنظرة ناطقة

بالرقة ، فنفضت الفتاة جمرها ثم سألته بعد لحظة صمت قصيرة :

— أتشكوها دفينا يا سيد إيجين ؟

— وأي امرىء لا يطوى صدره على هم ؟ ولو أننا معاشر الشبان وثقنا من أن ثمة قلوباً تنطوى لنا على الحب الصادق نظير ما نتحمله من أرهاق الحياة لما طرق الهم قلوبنا

فرمقته الفتاة بنظرة لا يختلف فى تأويلها اثنان . فهمس لها الفتى :

— أنت اليوم واثقة من قلبك يا آنسة ، ولكن هل تضمنين أنه لا يتغير بفعل الأيام ؟

فطافت بشفتى الفتاة المسكينة ابتسامة كأنها شعاع باق من روحها فأضفت على وجهها وضاءة ارتاع لها الفتى ، لأنه أدرك منهما أى بركان كان خامداً من العواطف والانفعالات تعرض له ليحرك كوامنه ، ولكنه استطرد يسألها :

— إذا واتتك أسباب الثراء غداً من حيث لا تعلمين ، بقيت على حب شاب فقير كان قد راق فى عينيك أيام بؤسك ومحنتك ؟

فأومأت له برأسها إيماءة لطيفة

— شاب فقير جداً إلى درجة الاعدام ؟

فأومأت إليه مرة أخرى جواباً على سؤاله

وفى هذه اللحظة صاحت بهما مدام فوكير من الطرف الآخر الصالون حيث كانت تجلس مع مدام كوتير قائلة :

— بماذا تهرفان ؟

فصاح بها ايجين :

— دعينا وشأننا فاننا نتفاهم

— أنستطيع أن نأمل إذن فى إعلان قريب لخطبة الشيفاليه إيجين دى راستنياك والآنسة فيكتورين تايفير ؟

وقيلت هذه العبارة بصوت أجش عريض هو صوت فوتران الذى ملأ جسمه الضخم فراغ باب القاعة . فتدخلت مدام كوتير وقالت :

— كفى دعابات نابية عن موضعها ! هيا بنا نصعد يا ابنتى

وصحبت مدام فوكير السيدة والفتاة لتقضى السهرة فى حجرتهما تنزل الصوف وتوفر ثمنها التى تنيرها فى حجرتها . فبقى ايجين وفوتران وحدهما وجها لوجه ، فرشق فوتران الفتى بنظرة نافذة وقال له :

— كنت أعلم أنك ستنتهى إلى النزول عند رأيى . بيد أنى أنصحك ألا تبت الآنرفى الأمر لأنك لست فى حالتك العادية فى هذه اللحظة : فأنت غارق فى الدين ، وأنا لا أريد أن يكون

قرارك صادراً عن اندفاع عصبي ، بل عن تفكير منطق هادىء . أما الآن فاذا كان يعوزك مبلغ من المال ، فخذ ما تشاء

وأخرج هذا الشيطان من جيبه حافظة منتفخة بالأوراق المالية أعطى منها الفتى ثلاثة آلاف فرنك. وكان ايجين في هذا الوقت بالذات في أشد حالات العسر المالي: فهو مدين للماركيز داجودا والكونت مكسيم دي تراي بخمسمائة فرنك خسرها أمامهما في القمار . وهو لا يملك هذا المبلغ ومن ثمة فهو غير مستطيع أن يذهب لقضاء السهرة عند الكونتس دي ريستو التي عدلت عن ايصاد بابها في وجهه بعد النجاح الهاوي الذي لقيه في المحافل والمجتمعات . لهذا كان الفتى يشعر بضغط هائل على أعصابه وهو يقول لفوتران :

— أنت تعلم جيداً يا سيدي أنه يستحيل على بعد الذي أفضيت إلى به أن أكون مديناً لك بأي شكل من الأشكال

— يعجبنى منك هذا الكلام . واني أوافقك عليه . فلن تكون مديناً لي بشيء من الفضل إذا أنا تقاضيت ثمن هذه الخدمة مبلغا من المال . فهاك سند أكتب فيه بخطك أنك تتعهد بدفع ثلاثة آلاف وخمسمائة فرنك بعد عام من هذا التاريخ . فالفائدة التي تبلغ خمسمائة فرنك مكن كاف لوساوسك وهواجسك ، لأنها تجعلك غير مدين لي بأي فضل ، وتسمح لك بارضاء كبريائك كما تشتهي عن طريق احتقار ذلك التواضعة . واني أقبل هذا من طيب خاطر عالماً أنك ستنقلب إلى حي في يوم من الأيام عندما تحمد عاقبة نصحي لك واني والله لفي عجب من تغير الأحوال في هذا الزمان : ففيما مضى كان المرء يتقد رجلا من أهل الشجاعة خمسمائة فرنك ويقول له :اقتل لي فلاناً من الناس ، ثم ينصرف إلى تناول طعامه بنفس مطمئنة . أما اليوم فها أننا أعرض عليك ثروة طائلة في نظير إماءة من رأسك لاتكلفك شيئاً ولا تورطك في شيء ، ولكنك مع هذا تقف متردداً . ياللجيل المخرع .!

فوقع ايجين السند وتسلم الثلاثة الآلاف فرنك ، واستطرد فوتران :

— والآن فلنتحدث فيما يجدي : فأنا أريد السفر الى أمريكا في ظرف بضعة أشهر ،لكي أتفرغ لزراعة الطباق وأرسل اليك من هناك لفائف التبغ الفاخر تذكاراً لصداقتنا،فاذا أصبت ثروة فاني عازم على مساعدتك ، واذا لم أنجب أطفالا فسأوصي لك بثروتي ، فأنا أشعر نحوك بعاطفة حب صادق ، وأنا من ذلك الطراز من الرجال الذي يقدس العواطف ويعيش لها : ذلك أني أعيش في فلك أعلى من المستوى العادي للناس ، فليست الأعمال عندي شيئاً مذكوراً لأنها مجرد وسائل ، والغايات وحدها هي التي تعنيني . وما الانسان في نظري ؟ هو كل شيء أو هو لاشيء ! هو لاشيء بل هو أقل من الهباء وأهون من العدم والعفاء إذا كان على غرار جارنا بواريه ، فهو والبرغوث سواء وليس سحقه جريرة أكبر من سحق بقة ، فهو تافه قدم لاحيوية فيه ولا شخصية له . أو هو كل شيء ، بل أنه أقدس من الانسان ، هو إله إذا كان

ى غرائزك مملوءاً بدفقات الحياة ، وليس بمجرد آلة صماء تأكل وتشرب وتتلهى ! لأنه يعيش بعواطفه ، والعواطف عندى هى لباب الحيـاة ، فما العاطفة إلا العالم كله ملخصاً فى حركة من حركات الوجدان . انظر إلى هذا الأب جوريو : بنتاه هما العالم أجمع لديه . وأنا مثله ولـكنى أرى أن العالم أجمع يتلخص فى عاطفة الصداقة التى تربط بين رجل ورجل . وهذا كل ماعندى قد أفضيت اليك به ، واثقاً أنك ستنتهى إلى حكمة الزواج من هذه الفتاة

وانصرف فوتران قبل أن يسمع إجابة الشاب ، كأنه واثق أن الاعتراض أو الرفض لاقيمة له أمام الظروف التى يضمرها المستقبل

وقال الفتى يخاطب نفسه وهو يتحسس الثلاثة الآلاف فرنك :

— فليفعل ما يحلو له ، فإنى لن أتزوجها

ولما هدأ روعه قليلا قام فارتدى ملابسه واستقل عربة إلى قصر مدام دى ريستو ، فأدى ن دى تراى وداجودا دينهما ، ثم لعب لعبة « الويست » الانجليزية التى شاعت فى المجتمعات الباريسية الراقية فاسترد ما كان قد خسره ، وخيل اليه أن هذا الحظ السعيد قد كافأنه بما لساء لتمسكه بطريق الاستقامة فى مسألة الزواج بالآنسة دى تراى ، ذلك الزواج الذى يخفى الرضى بجريمة قتل

فلما كان الصباح التالى أسرع إلى فوتران وطلب منه السند ورد له الثلاثة الآلاف فرنك مزهواً ، فابتسم الرجل ابتسامة الخبير بأطوار الشباب ، وكأنه يقول :

— من يعش يره ..



مؤامرة أخرى

وبعد يومين شوهد بواريه والآنسة ميشونون جالسين مع شخص ثالث في منعطف منزل بحديقة النباتات . وكان هذا الشخص الثالث يدعى السيد جوندورو . وكان هذا السيد يحاول إقناع السيدة ميشونون بأمر تظهر التردد في إمضائه

— ...ولست أرى يا آنستي ما يبرر هواجسك مع أن السيدوزير الأمن العام في المملكة...

فصاح عندئذ بواريه :

— السيد وزير الأمن العام !

— ...نعم أجل السيد الوزير بنفسه مهتم بهذا الموضوع

وكانت كلمة السيد الوزير كافية لاستيلاء الخشوع على السيد بواريه الموظف المتقاعد الذي قضى حياته في التعبد لأي وزير ، فالوزير له من القداسة عنده مثله ما للبابا روما عند جماعة المؤمنين بالكثلكة ، فهو تقي طاهر معصوم من الخطأ ، تحيط هالة من التقديس بجميع أفعاله بل باسمه المجرد . ويبدو أن السيد جوندورو قد استطاع أن يسبر غور بواريه فتعمد ذكر اسم السيد الوزير حتى يستولي على إرادة هذا الرجل ، كما تستولي دقات الطبول العسكرية على حركات الجواد الحربي المدرب. وبالفعل أخذ بواريه يضغط على الآنسة ميشونون كي تستجيب لرغبة السيد الفاضل مندوب وزارة الأمن العام . واستطرد جوندورو يقول ضارباً على هذا الوتر الحساس :

— إن السيد الوزير لديه من الأسباب ما يحمله على الاعتقاد بأن المدعو فوتران والقاطن بخان فوكير إن هو في الحقيقة إلا مجرم هارب من الليمان مشهور باسم قاهر الموت ... فانه أوتي من حسن الطالع ما جعله يفلت من الموت بما يشبه المعجزة مراراً عديدة مع شدة جرأته ومجازفته . فهذا الرجل شخص خطر ولكنه غريب الأطوار : فهو لايخلو من شهامة وأريحية، فهو مثلا قد حكم عليه في المرة الأخيرة لجرم لم يقترفه ..ذلك أنه تحمل وزر المجرم الحقيقي وهو شاب جميل جداً من أصل ايطالي ، كان يحبه فوتران كثيراً

فسألته الآنسة ميشونون :

— ولكن ما دام السيد الوزير متأكداً من أن فوتران هو بعينه قاهر الموت ، فلماذا يريدنا على معاونته ؟

— إنه ليس متأكداً بمعنى الكلمة ، وإنما هناك قرائن قوية على أن هذا الشخص هو « جاك كولان » الملقب بقاهر الموت ، وأنه وضع ثمة ثلاثة مناسر من اللصوص ، يقوم لهم بدور الوسيط في تصريف المسروقات ، نظير عمولة كبيرة ، ويحتفظ لهم بأموالهم ، ويستغلها ويثمرها لهم ، وينفق منها على أسرهم اذا سجنوا ، فاذا أطلق سراحهم أو هربوا من السجن رد اليهم مالهم ... فمن الأهمية لدى الدولة بمكان أن تستطيع القاء القبض على هذا الشخص ، والاستيلاء على المال الموجود تحت يده ، والذي يقدره العارفون بمبلغ طائل ... فاذا ساعدتما الدولة في هذا السبيل ، لم تضن عليكما بالمكافأة الجزيلة . فيمكن أن يعود السيد بواريه الى الخدمة ، سكرتيراً لمفتش من مفتشي البوليس مثلا ، ولا يحول ذلك دون استمراره في قبض المعاش عن خدمته السابقة . . أما الآنسة فستكون مكافأتها ذات بال

فسألته الآنسة ميشونون :

— ولكن لماذا لا يأخذ فوتران لنفسه هذا المال ويهرب به !

— لأنه اذا هرب فسيتبعه المجرمون الموتورون أينما حل لينتقموا منه . ثم ان فوتران يعتبر هذا العمل غدراً لا يليق بشرفه .

— . . . ولماذا لا تقبض عليه الحكومة بدون وساطتنا ؟

— لأن فوتران يبدو رجلا شريفاً في الظاهر ، فاذا لم تكن الحكومة متأكدة تأكداً قاطعاً ، كان إقدامها على إزعاج رجل شريف وثرى عملا غير مأمون العواقب ، لأن له أصدقاء في أعلى الأوساط .. والسيد الوزير لا يريد التعرض لسخط الرأى العام وكبار رجال الأعمال من أصدقاء فوتران بدون موجب . ثم ان مدير البوليس قد يتعرض لفقد مركزه اذا وقع في مثل هذا الخطأ

فعادت ميشونون تقول :

— ولكني أظنكم بحاجة الى امرأة جميلة للوصول الى سره . . .

— قاهر الموت لا يهتم بالنساء ولا يحبهن . . .

— ففيم تريد معاونتي لك إذن ؟

— المسألة في منتهى البساطة : سأعطيك سنجوراً صغيراً فيه مخدر قوى ، إذا صببته في كأس فوتران أو في قهوته فقد وعيه في الحال . وليس أيسر في هذه الحالة من نقله الى فراشه وخلع ملابسه بحجة إفاقته ، فتسنح لك الفرصة للتحقق من وجود « طابع الإيمان » الموشوم به كتف المجرم الهارب . . .

— ولكن اذا لم أجد هذا الطابع ، هل تعطونني مكافأتي ، وهي كما تقول ألفان من الفرنكات . . .

— طبعاً لا . . . خمسمائة فقط في هذه الحالة . . .

— هذا مبلغ لا يساوى المخاطرة . إن الوزر واحد في الحالتين ، فلماذا لا يكون الثمن

واحداً ؟ اسمع ! اجعل المكافأة ثلاثة آلاف فرنك اذا صح أنه المجرم الهارب ، ولا شيء إذا اتضح أنه ليس هو . . .

— وهو كذلك ! ولكن على أن تتم العملية غداً . . .

— ليس بهذه السرعة ، فلا بد لي من استشارة القس

— إذن نتقابل غداً لأعرف أتوافقين أم لا بصفة نهائية

— هو ذاك . . .



لهو وشجو

ولما ضاق الفتى ايجين بصدود دلفين فى اليوم التالى لم يستطع مقاومة مافى مشروع فوتران من إغراء ، فانزلق فى التودد الخادع لفيكتورين دى تايفير ، وصدقت الفتاة المتلهفة إلى العطف والحب متظاهر ها به ، فخيل اليها أن السماء قد فتحت لها أبوابها وأصبح خان فوكير فى نظرها وكأنما قد زانته أبهى الألوان والطنافس التى تزدان بها أفخم القصور

وأنقذ الفتى من سورة الندم على هذا الفعل دخول فوتران فى هذه اللحظة ، فرأ ينظرته النافذة مابين الشابين ، فولت فيكتورين هاربة لاذعراً ولكن خجلا من هذه السعادة التى لم تتمتع بمثلها فى حياتها من قبل ، وقال فوتران لايجين على الأثر :

— ان المسألة فى طريق الحل النهائى : فقد وقعت الفرقة والمشادة بين صاحبى والشاب تايفير ، واستدرج الشاب الساذج حتى تورط فى توجيه الاهانة إلى صديق ، وغداً فى منتصف الناسعة صباحا سيلتقى الفريقان ، وستصبح الآنسة تايفير الوريثة الوحيدة للب والدها وترونه فى الوقت الذى تكون منصرفة فيه هنا إلى غمس قطع الخبز فى فنجان القهوة على مائدة الافطار . أليس هذا طريفاً حقا ؟ وقد بلغنى أن الشاب تايفير بارع فى العاب السيف ، ولكنه لايعرف ضربة خاصة ابتدعتها أنا ويعرفها صديق ، يطير بها السيف من يد الخصم ويصاب فى جبهته بضربة قاضية . وفى نيتى أن أعلمك هذه الضربة يوما ما ، لأنها نافعة للغاية

وكان ايجين يصغى إلى هذا الكلام مبهوتا ولا يجيب . وفى هذه اللحظة دخل الأب جوريو وبيان شون طالب الطب وغير من النزلاء الآخرين . وخطر لراستنياك أن يذهب فى المساء ليحيط المسيو دى تايفير الشيخ وولده بحقيقة المؤامرة ، ولكن الأب جوريو مال فى هذه اللحظة على أذنه وقال له :

— أراك مكتئباً ياولدى ، لهذا سأدخل السرور على نفسك ، تعال معى !

فقام الشاب وتبعه وقد استبد به حب الاستطلاع ، وقال له الشيخ :

— لندخل إلى حجرتك ... لعلك قد ظننت هذا الصباح أنها لاتحبك لكثرة ماتدللت عليك ؟ فقد بلغنى أنها صرفتك وأنت غاضب يائس . اعلم إذن أنها صرفتك فى هذا الوقت لأنها كانت تنتظرنى أنا ، لأننا كنا على موعد لنتم أعداد مسكن أنيق خفيف الظل تتلاقيان فيه على هواكما بعد ثلاثة أيام . وهى تريد أن تجعل هذا الأمر مفاجأة لك ، فلا تظهر لها معرفتك به

لأنى أنا أطلعتك عليه لما رأيت حزنك ، فأنت عندى أثير ... ولقد انتقينا الأثاث معاً ، وكانت تحرى أن يكون بهيجاً كجهاز العريس ، ولقد استغرق هذا الاعداد أوقاتنا منذ شهر ، ولقد رتبت لك الأمر مع المحامى كى يصل الى يد ابنتى ربع بائنتها وهو ستة وثلاثون ألف فرنك فى السنة . . !

وكان إتيين يصفر وهو يتمشى فى الغرفة صامتا وذراعاه معقودتان فوق صدره . فانتهز الشيخ فرصة أدار فيها الشاب له ظهره وهو يتمشى ، فوضع على رف المدفأة صندوقا صغيراً من الجلد المراكشى الأحمر مطبوع عليه بالذهب شعار أسرة راستنياك ، وقال الفتى :

— ياولدى! لقد سعيت لهذا الأمر جهد طاقتى ، ولكننى كنت فى الواقع مدفوعا بالأنانية ، فهل تعدنى ألا ترفض لى طلباً سأتقدم به اليك ؟

— وما هو ؟

— فوق المسكن ، مسكنكما الجديد ، فى الطابق الخامس ، حجرة تابعة لمسكنكما ، فهل فى الامكان أن أقيم فيها ؟ فقد كبرت سنى ولم أعد أطيق كل هذا البعد عن بنتى ، وثق أنى سوف لا أضايقكما ، فيكفينى أن أراها وأن تحدثنى أنت كل ليلة عنهـا ! والحق بعد سيكون أقرب كثيراً إلى الشانزيليزيه التى أرتادها لأرى بنتى أثناء نزهتهـا ... ان دلفين قد عادت اليها سعادة الطفولة منذ هذا الشهر ، فهى مدينة لك بطعم السعادة ، ولهذا تجدنى مستعداً أن أفعل المستحيل من أجلك

ومسح الرجل الطيب عينيه فقد كان يبكى

— ... ولقد أسعدنى اليوم الحظ بنعمة حرمت منها منذ عشر سنين ، فقد طفت بالحوانيت وابنتى متعلقة بذراعى . ألا ما أحلى أن يشعر الانسان بمس ثوبها وهى تمشى بجانب ذراعه ... فاحتفظ بى فى جوارك ، فقد تحتاج إلى شىء ، فأقضيه لك أنا ، حتى إذا مات هذا الزوج الالزاسى الثقيل تمت السعادة لابنتى بالزواج منك ... ولقد قلت لها أنك أعطيتنى الألف فرنك ، فتأثرت كثيراً وأعطتنى شيئاً أوصله اليك . انظر ماهذا الذى فوق مدفأتك ؟

فلما فتح الفتى الصندوق وجد فيه رقعة تحتها ساعة ثمينة ، وفى الرقعة هذه الكلمات :

« أريد أن تفكر فىّ كل ساعة ، لأنى ... دلفين »

فتأثر الشاب حتى لقد دمعت عيناه ، وقال له الأب جوريو :

— اذهب لزيارتها هذا المساء ، فانها تنتظرك ، فالالزاسى سيتعشى الليلة عند صاحبته الراقصة ، فهل تقبل عيشى معك ؟

— أجل يا أبى ، فأنت تعلم جيداً أنى أحبك

— أعلم هذا ، فأنت لاتخجل منى

واحتضن الشاب بحرارة ثم قال له :

— تعهد لى أن تسعدها ! انك ذاهب الليلة . . أليس كذلك ؟

— أجل . ولكنى سأقضى قبلها أموراً لاتحتمل الإرجاء

— وهل فى وسعى أن أقضى لك شيئاً منها ؟

— تذكرت ! فى الوقت الذى أكون فيه عند دلفين ، تذهب أنت لقاء السيد تايفير الكبير لتطلب اليه موعداً يقابلنى فيه أثناء السهرة لشأن ذى أهمية قصوى

فصاح الأب جوريو فى حدة وقد تغير وجهه :

— أصحيح إذن أيها الشاب أنك تغازل ابنته كما يزعم هؤلاء الأوباش ؟ يا اله السماء ! انك لا تعلم ياولدى مدى مايصل اليه جوريو إذا غضب . فاعلم أنك إذا خدعتنا تعرضت لضربة قاضية ... ولكن هذا مستحيل !

— أقسم لك أننى لا أحب إلا امرأة واحدة فى العالم

— وافرحتاه !

— كل مافى الموضوع أن تايفير الصغير سيبارز بعض الناس غداً ، وقد سمعت أنه سيقتل

— وما شأنك بهذا ؟

— يجب أن نخبره ليمنع ابنه من الذهاب ...

وفى هذه اللحظة سمع عند عتبة الباب صوت فوتران المرح يتغنى بأغنية شعبية ، ثم حضر الخادم كريستوف وصاح :

— أعدت المائدة والجميع فى انتظاركما

وصاح فوتران بمرح :

— هيا تناولا معى زجاجة من نبيذ بوردو

أما جوريو فكان منصرفاً الى سؤال ايجين عن الساعة وهل أعجبته ، ثم استطرد الى إطراء ذوق ابنته الجميل !

وهكذا هبط فوتران والأب جوريو وراستنياك معا ، وجلسوا الى المائدة متجاورين بحكم تأخرهم فى النزول



كئوس الطلى

كان تأثير هذا اليقين الذى طرأ على قلب إيجين من جهــة دلفين قاضياً على اغراء فوتران . لهذا أظهر له الفتى أثناء الطعام نفوراً ، مع أن فوتران كان فى تلك الساعة فى قمة المرح والظرف ، ينثر الدعابات يميناً ويساراً ، حتى أن مدام فوكير سألته فى دهشة :

— ماذا جرى اليوم حتى يستخفك المرح الى هذا الحد ؟.

— انى دائماً مرح ، حين أوفق فى صفقة رابحة ...

فسأله إيجين متهكماً :

— صفقة ؟

— أجل .. فقد سلمت اليوم بضاعة طيبة سأنال عليها عمولة ضخمة !

فصاحت مدام فوكير :

— ما دام الأمر كذلك ، فلا تضيع الوقت فى الكلام ، وهات نبيذك للوعود

فقال فوتران فى مجون ممزوج بالجد المموه :

— أيها السادة ! ان حضرة الرئيسة قد نبهتنا الى جدول الأعمال ! يا كريستوف .. هات النبيذ

— هاكه يا سيدى !..

فصب فى كأسى إيجين وجوريو من النبيذ ما ملأهما ، ثم وضع فى كأسه بضع نقط امتصها فى بطء ، ثم عبس وصاح :

— هذا ليس من أعلى طبقة . خذ هذه الزجاجة لك يا كريستوف ، وهات أخرى ، مما فى الجهة اليمنى .. نحن هنا ستة عشر ، فأنزل ثمانى قنينات

وما هى إلا دقائق ، حتى دارت على الشاربين كئوس الطلى مترعات ... وبدأت حرارتها تسرى فى العروق وتصعد الى الرؤوس .. ودوت الضحكات العالية المنطلقة من كل تحفظ ، وتطايرت النكات والقفشات ، وبات الكل يتحدثون فى وقت واحد ... حتى صارت الضجة شيئاً فظيعاً لا يمكن أن يحتملها إلا المخمورون . فالكل يهزلون ويهذرون ، وفوتران يرشقهم باسماً بنظراته الهادئة . . ولا سيما إيجين وجوريو اللذين أسندا رأسيهما الى ظهر المقعد ، وقد بدا عليهما اعياء السكر . والواقع أن كلا منهما كان مشغول البال بما سيصنع فى ليلته ، ولكنه يشعر أنه غير قادر على القيام من مجلسه . حتى إذا استبد بهما خدر الخمر ، ومالت عيناهما الى النعاس ، مال فوتران على أذن إيجين وهمس له ساخراً :

— يا عزيزي الصغير ، لسنا أنداداً للأب فوتران في المكر ، حتى نشتبك معه في صراع غير متكافئ ... ثم هو يحبك كثيراً بحيث لا يدع لك فرصة الإقدام على حالة .. مثل تحذير تايفير مما ينتظره غداً ! نم يا حبيبي نم ! وفي الوقت الذي تأخذك فيه هذه السنة من النوم ، يقوم صاحبي بشق طريقك الى ميراث تايفير بحد سيفه الصمصام ... فوت أخيها سينقل اليها ميراثاً صغيراً يبلغ دخله خمسة عشر ألف فرنك في السنة

وكان ايجين المسكين يسمع كل حرف ، ولكنه لا يستطيع حراكاً ولا نطقاً، وكأن ضباباً كثيفاً قد ضرب أمام عينيه . . . ثم خبت حواسه وراح في غيبوبة ، في حين انصرف بقية النزلاء ، كل منهم في حجرته مشغولا بحالة « السرور » التي سببتها له الخمر ... عدا إيجين وجوريو والسيدات ... وعندئذ صاح فوتران :

— لقد سكر هذان !.. ما أروع صورتهما معاً !

ثم جعل يهزهما فلا يستفيقان ، فأسند رأسيهما الى المائدة ليناما أكثر راحة ... ثم قبل جبين إيجين وهو يغني :

« نم يا حبيبي نم ..

« فأنا ها هنا ساهر ! »

فقالت فيكتورين بقلق :

— أخشى أن يكون مريضاً ..

— ايني إذن للسهر عليه والعناية به !

ثم مال على أذنها وهمس لها :

— هذا واجب المرأة المخلصة المطيعة ... فهذا الشاب يعبدك عبادة !

ثم انطلق فوتران خارجا ليحضر مركبة يصحب فيها صاحبة الخان الى ملعب من ملاعب التمثيل كما وعدها من قبل ..فمال جسم جوريو حتى كاد يسقط على الأرض ، فتحاملت مدام فوكير وصاحت مستنكرة :

— ما أسخف أن يفقد رجل في مثل سنه صوابه بفعل الخمر . هذا لا يليق . رباه ! إن الرجل سيقع ، فاحمليه يا سيلفي الى فراشه

فوضعت ... يدها حول خاصرة الشيخ وجرته جراً فألقته بملابسه بعرض السرير ! ثم هبطت مسرعة لتلبي نداء سيدتها التي كانت تصيح بها أن تسرع كي تعاونها في لبس مشدها الكبير كي تبدو في أحسن حالاتها وأرشقها في صحبة العملاق التي تميل اليه للونه ومجونه وسخائه

أما مدام كوتير وفيكتورين فانشغلتا بالفتى ايجين ، تسندان رأسه الذي كان يترنح فيكاد يصطدم بالمائدة أو ذراع الكرسي . وهمت ان تأخذه مدام كوتير على كتفها ، ولكن رأسه مالت الى كتف فيكتورين التي كانت بادية القلق عليه ، حتى لقد تحرك قلب مدام كوتير فراحت

تربت على خدها فى حنان . فقالت لها الفتاة وهى تتخلل باصابعها شعر الفتى :
— انه مع هذا لم يزد على كأسين يا أماه ...
— لو كان من مدمنى الشراب لتحمل سورة النبيذ كما تحملها الآخرون .. فسكره شاهد على براءته . . .
ودخل فوتران فى هذه اللحظة قادماً بالعربة التى ستقله مع صاحبة الخان الى المسرح ، فما رأى هذه اللوحة التى تسكونها الفتاة والفتى ، حتى عقد ذراعيه فوق صدره وصاح :
— سبحانك ربى ! هذا لعمرى مشهد خليق ان يلهم أجل الصفحات لهذا الكاتب برناردان دى سان بيير ، مؤلف بول وفرجينى ! ان الشباب جيل يا مدام كونير ! انظرى : أما ترين ملكا ينام على كتف ملك ؟ انى لأغبطك يا فيكتورين ، فلو كنت امرأة لتمنيت أن تتاح لى الحياة من أجله فحسب
ولم تلبث مدام فوكير أن هبطت الدرج فى زينة ظاهر فيها الجهد والتمحل ، وقد توهج وجهها لشدة ضغط الشد الكبير على خصرها الضخم ، وانصرفت تتأبط ذراع فوتران . ولم يبد على ايجين ما يدل على قرب افاقته ، فحملته مدام كونير وفيكتورين بمعونة سيلفى الى حجرته ، فأرقدنه على فراشه ، وخلعت سيلفى عنه ملابسه ، وغطته بعناية . فلما همت النسوة الثلاث بمغادرة الغرفة ، اختلست فيكتورين من وراء ظهر مدام كونير قبلة من وجنة الشاب المخدور . ثم شملت الحجرة بنظرة مستوعبة خاطفة ، حتى تحتفظ فى قرارة نفسها بصورة المكان الذى يعيش فيه فتاها
وفى هذه الليلة لم تنم فى باريس فتاة وهى أسعد من فيكتورين دى تايفير ..



سبق السيف العذل

وكان اليوم التالي من أبرز الأيام في تاريخ خان فوكير . فقبل هذا اليوم لم يحدث في هذا الخان حادث يغير من رتابة الحياة فيه خلا ظهور الكونتس للزيغة ، ولكن هذا الحادث القديم سيطويه خول الذكر بالقياس إلى ماهو مزمع أن يحدث اليوم

وأول الظواهر الغريبة في هذا اليوم استغراق الشاب ايجين والشيخ جوريو في النوم حتى الساعة الحادية عشرة ، وأن مدام فوكير التي عادت من ملعب التمثيل بعد انتصاف الليل ظلت في فراشها إلى مابعد العاشرة ، وحتى الخادم كريستوف نام إلى الضحى لأول مرة في حياته لأنه شرب كل ما تبقى من نبيذ فوتران فلم يقدم الافطار إلا بعد موعده بكثير . وفوتران وحده هو الذي استيقظ مبكراً فخرج قبل الثامنة ثم دخل والمائدة معدة . ولكن الآنسة ميشونون كانت أول من هبط إلى القاعة وبقيت فيها وحدها ريثما يطوف الخادم والطباخة بحجرات النزلاء لايقاظهم من نومهم الطويل . وانتهزت ميشونون هذه الفرصة فصبت في وعاء اللبن الفضي الخاص بقهوة فوتران ذلك المنجور الذي زودها به جونورو ، ثم بدأ تقاطر النزلاء على القاعة ،وكان آخرهم ايجين الذي وجد في انتظاره رسولا من قبل البارونة دلفين دي نوسنجين يحمل اليه منها خطابا هذا نصه :

« لست أحب الكبرياء الكاذبة ، فلا أنكر عليك أنني انتظرتك الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل كما تنتظر المرأة الرجل الذي تحبه ! ولعمري إن الانسان الذي جرب مرة في حياته هذا العذاب الأليم لايطاوعه قلبه على إذاقته لأحد ، وقد استنتجت من هذا أنك لم تحب من قبل . فاذا وقع لك فمنعك عن الحضور ؟ إن القلق عليك ينهش قلبي ، ولولا خشيتي من اثارة قالة السوء لكان حضوري للاطمئنان عليك بالأمس أقرب شيء إلى الوقوع . ففسر لي تخلفك عن الحضور . هل تشكو مرضاً ؟ أتوسل اليك أن تطفئ بكلمة منك تشوق غليلي وتؤكد لي عزمك على الحضور في أسرع وقت مستطاع . »

فلما فرغ الفتى من تلاوة الخطاب جعل يصيح وهو يقتحم قاعة المائدة :

— ماذا حدث لي ؟ كم الساعة الآن ؟

فأجابه فوتران وهو يضع السكر في قهوته :

— منتصف الثانية عشرة ثم رشق الفتى بنظرة فاحصة خادعة ،فوجم الفتى وإن كانت أوصاله

ترتعد غضبا . وفى هذه اللحظة سمع أمام الباب صوت عربة مسرعة ولفت لجأة وهبط منها حاجب من حجاب السيد نايغير عرفته مدام كوتير لأول وهلة ، وكان بادى الرعب ، فصاح بالآنسة فيكتورين :

— يا آنسة ، والدك يطلب حضورك حالا . لقد حل بنا خطب هائل : فقد اشتبك السيد فريدريك شقيقك فى مبارزة وأصابته ضربة سيف فى جبهته وأعلن الأطباء يأسهم من نجاته ، ونسأل الله أن تكون هناك فرصة لتودعيه الوداع الأخير . . . فإنه قد فقد الوعى ودخل فى طور النزع

فهتف فوتران :

— يا للشاب المسكين ! ولكنه كان فى غاية الحمق إذ اشتبك فى هذه المبارزة . فهل يتشاجر المرء ولديه ثلاثون ألف فرنك دخلا سنويا صافيا ؟

فصاح فى وجهه ايجين :

— سيدى !

فأجابه فوتران وهو يحسو قهوته بهدوء — والآنسة ميشونون ترمق احتساءه لها بعين لا تغفل :

— ماذا تريد يابنى أن تقول ؟ أتريد أن تقول أنه لا تحدث فى كل يوم مبارزات شتى فى مدينة باريس ؟

وقالت مدام كوتير :

— سآتى معك يا فيكتورين

وأسرعت المرأتان كلتاهما إلى العربة . وقالت مدام فوكير :

— إن هذا لغريب ! فالموت يخبط خبط عشواء الليل ، فيهتبل الصغار قبل الكبار . وانه لمن حسن طالعنا نحن النساء الا نتعرض للمبارزات . وإن كنا نتعرض لآلام أخرى لا يتعرض لها الرجل مثل مخاض الولادة . ولكن هذه المصيبة ستفيد منها فيكتورين فائدة كبرى ، سيضطر والدها لاحتضانها .

والتفت فوتران إلى إيجين وقال له :

— ان التى كانت بالأمس معدمة هاهى قد أصبحت اليوم من ربات الملايين

وقالت له مدام فوكير :

— لعمرى ياسيد ايجين لقد وضعت يدك على كنز فريد !

فنبهت هذه العبارات الأب جوريو فنظر إلى الفتى باستغراب ، فأسرع ايجين يقول لمدام فوكير فى تقزز ظاهر أثار دهشة الحاضرين :

— إننى ياسيدتى لن أتزوج الآنسة فيكتورين

وقال حاجب دلقين :

— انى فى انتظار الجواب ياسيدى

— قل انى حاضر

وانصرف الحاجب وايجين لا يزال فى حالة عصبية فى غاية العنف فهو يحدث نفسه ويلوح يديه ، ثم هز كتفيه أخيراً وقال بصوت مسموع :

— ولكن ماذا أصنع ؟ ليس تحت يدى أى اثبات

فابتسم فوتران ولكن ابتسامته لم تطل ، فقد سقط على الأرض بلا حراك ، فصاح إيجين :

— حقاً ان فى السماء لعدلا إلهيا !

وصاحت صاحبة الخان مذعورة :

— ما الذى جرى للسيد فوتران ؟

فأجابتها ميشونون :

— نوبة صرع ليس غير ...

وأسرعت سيلفى لتدعو طبيباً ، وأسرع ايجين لينادى بيان شون طالب الطب . وتعاون كريستوف ومدام فوكير وبواريه وميشونون على حمله والصعود به الى غرفته . أما جوريو فلم يشترك معهم بل انصرف غير عابىء ليرى ابنته . وطلبت ميشونون الى مدام فوكير أن تحضر لها زجاجة ايثير ، فلما خلا لهما الميدان نزعت قميص الرجل وضربته على كتفه فظهر طابع الايمان أبيض اللون فى وسط الموضع المحمر من أثر الضربة ، فصاحت هى وبواريه فرحا بالثلاثة آلاف فرنك ، وهى المكافأة الموعودة . وفى هذه اللحظة سمع صوت مدام فوكير قادمة تلهث وفى يدها زجاجة الأيثير ، وهى لاتملك نفسها من الجزع على الصلاق للريض ...



نهــــاية عملاق

ذهب ايجين ليتنزه فى الحديقة العامة ليحاول استجماع شتات أعصابه ويراجع نفسه فيما هو مقبل عليه ، فعاد إلى ذاكرته حـديث الأمس الذى دار بينه وبين جوريو ، عن ذلك المسكن العصرى الأنيق الذى أعد له ليكون عش غرام يستقبل فيه دلفين ، ويعيش فيه بدلا من النزول فى هذا الخان الحقير . وأخرج خطابها فجعل يتلوه مرة أخرى ثم قال لنفسه :

— ان حباً كهذا هو طوق النجاة لغريق مثلى — ولن أتخلى عن الأب جوريو ، فهذا الرجل يتألم فى صمت ، فسأكون له بمثابة الابن البار . وسيسعد الشيخ لأن ابنته مادامت تحبنى فستأتى ولا ريب لتقضية ســحابة النهار فى جوارى فيتسنى له أن يراها . أجل ان دلفين طيبة القلب ، على خلاف هذه المتعجرفة المتنازى دى ريستو . فما أسعدنى بحبها ، وان أحلامى بالوصال ستتحقق ابتداء من هذه الليلة

ثم جعل ينظر فى الساعة التى أهدتها اليه وقال :

— لقد تحققت جميع آمالى ، ولا ضير أن أقبل منها الهدايا والمعونة مادام الحب قد جعل منا شخصاً واحداً ، وطبعاً طبعاً سأرد اليها هذا كله مضاعفاً مائة مرة حينما أصل إلى مقاليد الثروة . ولا جناح علينا أن نتحاب ، فهى فى حكم الطليقة لأنها قطعت علاقتها بزوجها من زمن طويل وأوصدت دونه باب مخدعها.وعما قريب سيصير فى امكانى أن أواجه هذا الالزاسى وأقول له : دع لى امرأة لم يعد فى طاقتك أن تسعدها !

وهكذا أقنع الفتى نفسه بأن ماهو مقدم عليه حل له ، وأن ماتورط فيه لايلحقه منه وزر ، فلما انتصفت الساعة الخامسة عاد إلى النزل الذى سيغادره بعد يومين إلى غير رجعة كى يعرف هل مات فوتران أم نجا . فوجده حين دخل واقفاً على قدميه أمام المدفأة فى قاعة المائدة التى تجمع كل النزلاء عدا جوريو ، ملهفين على تفاصيل التغير الهائل الذى طرأ على حياة فيكتورين . فلما دخل ايجين التفت نظراته بنظرات فوتران الذى ابتسم وقال للفتى وكأنه يقرأ أفكاره :

— لقد نجوت من الموت بأعجوبة ، فهل تراك آسف لنجاتى ؟

وفى هذه اللحظة سمعت ضجة يحدثها بضعة رجال وخطوات عسكرية ، ثم ظهر أربعة رجال أولهم رئيس إدارة المباحث ومعه ثلاثة ضباط صاح أحدهم بين دهشة الحاضرين :

— باسم القانون وباسم الملك !



د سیملوا اتی اتر پانی جنگ کولان تشهور یاغی قهر موت •

وساد الصمت قاعة المائدة ثم تقدم الضباط الثلاثة وأيديهم على مسدساتهم إلى وسط القاعة في حين انتشرت ثلة من الجند حول جميع الأبواب والنوافذ وتقدم رئيس المباحث نحو فوتران فانتزع من فوق رأسه طاقية الشعر المستعار ، فبدت رأسه ضخمة عاطلة إلا من شعرات حمراء . وصعد الدم إلى وجهه ولمعت عيناه ببريق كبريق القط المتوحش ووثب من مكانه وثبة أطلقت صيحات الرعب من جميع الحاضرين ، فشهر الجنود والضباط عليه مسدساتهم وبنادقهم ، فأدرك أنه قد استحال عليه الفرار وأن المقاومة لاطائل تحتها ، فابتسم وأشار إلى طاقية شعره المنزوعة وقال لرئيس المباحث :

— أراك لست اليوم في أدبك المعهود !

ثم مد كلتا يديه إلى الجنود وأومأ اليهم برأسه أن يقتربوا

— ضعوا فيهما الأغلال ، وأنا أشهد الحاضرين جميعاً على أني لن أبدِ أي مقاومة

فصاح رئيس المباحث :

— اخلعوا عنه ملابسه

— ولماذا ؟ ففي القاعة سيدات ثم أنا معترف وأسلم نفسي

وتمهل قليلا وهو يدير في الحاضرين نظراته كما يفعل الخطيب حين يهم بالكلام

— سجلوا أنني أقر بأني جاك كولان المشهور باسم قاهر الموت ، والمحكوم عليه بعشرين سنة مع الشغل

وعاد يتفحص وجوه الحاضرين ثم استطرد :

— من الذي وشى بي ؟

واستقر بصره على الآنسة ميشونون

— .. انه أنت أيتها العجوز القرديس ! أنت التي دست لي هذا المخدر، وفي استطاعتي أن أجعل انتقامي يلحقك وأنا داخل السجن في ظرف أسبوع واحد . ولكني أعفو عنك ، فأنا رجل غفور متسامح

وفي هذه اللحظة كان الجنود قد فرغوا من تفتيش حجرته وجاؤا يهمسون في أذن رئيس المباحث بكلام فجعل فوتران يقلب ناظريه في وجوه جيرانه السابقين ويشكر لهم عشرتهم الطيبة ثم خطا خطوة نحو الباب مع حراسه والتفت إلى إيجين دي راستنياك فقال له بصوت رقيق يفيض أسى :

— وداعا يا إيجين ولكنني لم أتخل عنك نهائياً ، فاذا حزبك أمر فهناك صديق يركن اليه أوصيته بك ، وسيفه وماله تحت أمرك

واستطاع رغم القيود التي تكبل يديه أن يقلد حركات معلم السيف ، ففهم ايجين وحده من الذي يعنيه فوتران ، فهو صديقه ضابط الحرس الذي بارز شقيق فيكتورين وقتله

وغادر فوتران مع الجنود خان فوكير إلى غياهب الليمان . وأقبلت سيلفي الطباخة ترطب عارضي سيدتها بالخل والكحول عساها تفيق من الاغماء الذي أصيبت به . وهزت الطباخة السمينة كتفيها في أسى وقالت متحسرة :

— ومع هذا فقد كان رجلا أي رجل . .



وكر الغرام

يوم حافل !

فتاة تنتقل من الفقر المدقع الى الثراء الطائل في طرفة عين . ورجل عملاق يصاب بالإغماء ، ثم ينكشف المستور ، فاذا هو مجرم هارب من الليمان ، وهو مع هذا يحب الفتى ايجين لغير سبب ظاهر ، ويترك له عند صاحبه توصية باعطائه كل ما يطلب من مال ، وتقديم كل ما يحتاج اليه من معونة ، ولو اقتضى الأمر أن تزهق روح !

والفتى المبهوت سيستيقظ قرب الظهر ليجد خطاب عتاب ومناجاة غرام ، وليعلم أن السعادة تنتظره إذا جن الليل ، وكان قد حسب التعلق بوصل دلفين تعلقاً بالمحال . فلا غرو أن تراه مشغولا بهذه الأحداث وما تركته في نفسه ، وهو مستقل العربة الى جوار الأب جوريو ، في طريقهما الى لقاء دلفين في « عش الغرام » الجديد

وكان الشيخ ظاهر السرور ، كأن أحداث اليوم لم تنل منه :

— لقد انتهى عهد الشقاء ، وستتعشى الليلة ثلاثتنا معاً . معاً ! أتدرى ما معنى هذا ؟ معاً ! لقد انقضت أربع سنوات منذ تعشيت آخر مرة مع عزيزتي دلفين . أما الليلة فستكون لى طول السهرة ! ولقد كنا معاً منذ الظهر في بيتك الجديد ، لإتمام الاستعداد لاستقبالك فيه . تالله لقد كنت سعيداً وأنا أعمل كالفعلة الأجراء في نقل الأثاث وتنظيفه . . . والليلة سأقبض ثمن هذا التعب ، فأنت لا تدرى مدى طيبة قلب دلفين « خذ هذه يا بابا . فهى قطعة طرية وطعمها لذيذ ! » . . . اليوم يا صاحبي يوم فاصل

— أجل يا أبي العزيز ، فقد زلزلت الأرض اليوم زلزالها !

— زلزلت زلزالها ؟ ! كيف ؟ فلست أرى في الشوارع إلا وجوهاً زهاها البشر ، كأن كل واحد منهم سيسعد مثلي بالعشاء مع ابنته . إنه عشاء لطيف يا ولدى العزيز ، سمعتها بأذنى تطلب أصنافه من طباخ المقهى الانجليزى . . . مع أن الصاب والعلقم يكون لهما طعم العسل في فم من يشاطرها الطعام . . . ماذا دهاك أيها الحوذى ؟ ما هذا الابطاء ؟ أسرع يا هذا . . . وسأعطيك خمسة فرنكات زيادة على أجرتك اذا بلغت بنا مقصدنا قبل عشر دقائق !

فاسمع الحوذى هذا القول حتى جعل يمرق في شوارع باريس مثل السهم الريش . ولكن الأب جوريو جعل يتقلب في مقعده ويقول :

— تباً لهذا الحوذي ! إنه لا يتحرك من موضعه !

ووقفت العربة أخيراً في شارع « دارتوا » ، فنزل الشيخ والشاب وصعدا سلم بيت من داخل رحبة ، وطرقا باب مسكن يطل على الجهة الخلفية من البناء ، فلا يرى السابلة في الطريق العام من يعيش فيه أو يطل من نافذته . ولم تكن بالأب جوريو حاجة الى طرق الباب ، لأن الوصيفة « تيريز » كانت أسرع الى فتحه . فألفى ايجين نفسه في مسكن أنيق آخر . تطل حجراته الثلاث على الحديقة الخلفية . وفي الصالون الفخم الرشيق رأى على ضوء الشموع دلفين دي نوسنجين تنهض من مجلسها بجوار المدفأة ، فاحتواها بين ذراعيه وضمها الى صدره بحرارة ، وقد دمعت عيناه من الفرح . . . ومسح الأب جوريو عينيه وقال لابنته :

— أنا خبير بالقلوب . لهذا كنت واثقاً أنه يحبك أعظم الحب

وصحبت دلفين ايجين فطافت به أرجاء الحجرات ، حتى دخلت به حجرة أذكرته في تأثيثها وترتيبها حجرة دلفين الخاصة في بيتها ، ولكنه قال مستغرباً :

— ولكن ليس هنا سرير !

فقالت له وقد احمر وجهها ، وهي تضغط على يده بحرارة :

— أجل . . . لا سرير . . .

فأدرك مقدار وخز الحياء الذي تشعر به ، فأقبل عليها معانقاً مقبلا :

— أنت فريدة بين النساء يا حبيبتي . . وحبنا أيضاً فريد ، لهذا يجب أن نصونه عن عيون جميع الناس

فصاح الأب جوريو :

— وأنا ؟ هل أنا أيضاً ضمن هؤلاء الناس ؟

— كلا يا أبانا . . . إنما أنت « نحن » . . . ونحن أنت . .

— هذا ما أريد . لا تلقيا الي بالا ، وكأني غير موجود . لا تتحرجا أمامي . . . أرأيت يا دلفين كيف جاء اختياري سليما ؟ إنك كنت غير مقتنعة ، ولكني أصررت ، وها أنذي تجتنيء ثمرة السعادة . وها أننا قد منحتك الحب كما منحتك الحياة !

وصاح ايجين :

— ولكني رجل فقير . ولا أستطيع أن أقبل هذه الأشياء كلها ، لأنها فوق طاقتي المادية . .

فاستاءت دلفين وهتفت به :

— إن رفضك لا يحمل الا معنى واحداً ، هو أنك غير واثق من بقاء قلبك على حبي دون أن يتحول يوماً . . . أما إذا كنت تحبني ، كما أحبك أنا ، فلماذا تتردد ؟ ولو عرفت مبلغ هناءتي بالإشراف على هذا البيت وتصريف شئونه ، لما ترددت لحظة واحدة . . . ثم ما معنى

تردداً في قبول هذه الأشياء التافهة ، وأنت تطلب مني ما هو أغلى منها ولا شك ؟ . . فالذي يحب حقيقة ويطلب المنحة الكبرى ممن يحب ، خليق أن يستهين بأي منحة أخرى بجانبها ! . . أتنسى يا أبي أنت ... حتى نستطيع أن نمشي

— اسمع يا ولدي . إنك لازلت على أبواب الحياة ، فاسمع إليّ : هل أمامك وسيلة لدفع ثمن هذا الأثاث غير الاستدانة من المرابين اليهود ؟

— هذا هو الحل الوحيد . . .

— عظيم ! ها أنتذا قد وقعت في الفخ . أنا هذا اليهودي الذي ستقترض منه . لأنني أنا الذي دفعت أثمان كل شيء ، وهــذه هي « الفواتير » ومجموعها لا يتجاوز الخمسة الآلاف فرنك . فأنت مدين لي بهذا المبلغ الذي أقرضــك إياه . ولا يمكن أن يكون لديك مانع من هذا لأنني لست امرأة حتى تستنكف أن تكون مديناً لي . ولا بأس أن تحرر لي ســنداً بالمبلغ في أي وقت . .

فجال الدمع في عيون الفتى والفتاة وقد تبادلا نظرات الدهشة ، وشد راستنياك على يد الشيخ الطيب وقد عجز عن الكلام ، فقال جوريو ببساطة :

— ولم لا ؟ ألستما طفلي العزيزين ؟

فسألته ابنته وهي لا تزال مبهوتة :

— ولكن كيف استطعت يا أبي أن تسدد من وراء ظهري هذه الفواتير ؟

— هاك : عندما رأيتك وقد استخفتك السعادة بأن ترى هــذا المسكن كأنك عروس تشتري جهاز عرسها ، قلت في نفسي ها هي ابنتي ستورط نفسها في عسر مالي سيكدر عليها سعادة حبها الناشيء . وقد قال لي المحامي إن إجراءات استرداد بائنتك من زوجك يلزمها ستة أشهر على الأقل . فبعت جزءاً من إيرادي السنوي وسددت أثمان هذه الأشياء . وقد بقي لي من الإيراد مائة فرنك شهرياً تكفيني وتفيض عني ، فإني سأشعر كما لو كنت أميراً متوجاً في غرفة السطح التي تعلو هذا البيت ، ما دمت متمتعاً برؤيتكما سعيدين

فهجمت عليه ابنته واحتوته بين ذراعيها فأجلسها الشيخ على ركبته كما لو كانت طفلة صغيرة وجعل يهدهدها ويداعب شعرها وخديها ، ثم صاح بها :

— إني لم أشعر منذ عشر سنين بمثل هذه السعادة ، فلا تزيديني منها وإلا فإنني فإن قلبي يكاد ينشق من سرعة دقاته ، دقات الفرح

ثم احتضنها بشدة فصاحت :

— لقد أوجعتني !

— أوجعتك ؟

وشحب وجهه شحوباً شديداً وجعل يتأملها في نزع ، فبهت أيجين لهذا الاخلاص الذي يصل

الى حد الهوس ، ولكنه لم يخل من إعجاب شديد بهذا الحب النادر

وأقبلت دلفين على الشاب فتخللت شعره بأصابعها وقبلت جبينه . فقال لها أبوها :

— اعلمي أنه رفض من أجلك الزواج من الآنسة تايفير وريثة الملايين . أجل يا إيجين ، إن الفتاة كانت تحبك حباً حقيقياً ، وها هي قد غدت بموت أخيها صاحبة ثروة خيالية

فصاح به إيجين عاتباً :

— ما كان ينبغي أن تقول هذا الكلام

— عفوك ! فهذا أسعد يوم مر بي منذ زواج ابنتي . والآن لا أبالي ما يجري علي به من قضاء الله ، فقد قرت عيني برؤية عزيزتي دلفين في قمة السعادة . ماذا ؟ إنني قد تمتعت في هذه الساعة الواحدة بمقدار من السعادة لا يستطيع أن يشعر به جميع أهل الأرض في حياتهم طولها . والآن الى الطعام !

واقتضى الطعام في فعال صبيانية ، فقد كان الشيخ الذي ناهز السبعين أحدث سناً في هذه الليلة من الشابين العاشقين : فهو يرقد تحت أقدام ابنته حيناً ليقبلها ، وحيناً آخر يحدق في عينيها برهة طويلة ، أو يمرغ وجهه المتغضن المتهلل الأسارير في هدب ثوبها . . . فقد كان الرجل مخموراً دون أن تمس الخمر شفتيه ، فهو يحب ابنته الى حد السكر بطلعتها والتلذذ بحديثها

وأخيراً قال الفتى :

— أرى أنه لا بد أن نفترق الليلة ، فليس هنا مكان للمبيت

— غداً سيكون كل شيء قد تم لإقامتك . ولكن لا تنس أنك ستتعشى معي في بيتي ، لأن الليلة للقبلة من ليالي الأوبرا الإيطالية

وقال الأب جوريو :

— سأذهب أنا أيضاً ، ولكن في الصالة مع عامة الناس ، حتى أستطيع أن أتمتع برؤيتكما وأنتما تزينان المقصورة

— الى غد إذن . . .

وكان الليل قد انتصف



الدعوة المشتهاة

ونحو ظهر اليوم التالى تلقى ايجين خطابا أنيقاً عليه شعار آل بوسيان ، وجد فيه دعوة موجهة الى البارون والبارونة دى نوسنجين لحضور الحفلةالراقصة الكبرىالتىتقيـمها الفيكونتس دى بوسيان ، ومع الدعوة رقعة بخط الفيكونتس : « لقد خطر لى أنك ستقبل عن طيب خاطر ابلاغ تحياتى الى البارونة دى نوسنجين . وانى أرسل اليك مع هذا الخطاب الدعوة التى طلبتهـا منى ، وأنه ليسرنى أن أتعـرف الى شقيقـة الكونتس دى ريستو ، فأحضرها معـك ، وتقبل تحيتى » . . .

فلما تمعن الفتى فى هذه السطور أدرك ان ابنة عمه لا تميل الى حضور البارون حفلتها الراقصة فسر لهذا وأسرع الى بيت دلفين لأنه يعلم أنها ستغمر سروراً لا مزيد عليه بهذه الدعوة التى طالما اشتهتها ولم تكن تحلم أن تحصل عليها يوما ما ، فوجدها فى الحمام ، فانتظرها فى حجرة زينتها وهو يتحرق شوقاً الى استجلاء طلعتها ، ووردت على خاطره صورته وقد أقبل من الريف منذ سنة ساذجا خاملا خجولا فقيراً منبوذاً ، فاذا هو اليوم أنيق له حظوة عند الحسان ، وله عشيقة من أجمل وأبرز نساء المجتمع الباريسى ..

ونبهته الوصيفة تيريز الى خروج سيدتها من الحمام ووجودها فى مخدعها ، فخف الى هناك ليجدها مستلقية على مقعد طويل بجوار النار وعليها غلالة من حرير موصلى ، فبادرها بقوله :

— ما تظنين أنى أحمل اليك ؟

وجلس الى جوارها وتناول يدها ليقبلها

وندت عن دلفين صيحة فرح طاغ حينما قرأت الدعوة ، وحولت الى ايجين عينين مخضلتين بالدمع وطوقت عنقه بذراعيها لتضمه الى صدرها فى نشوة عارمة من السرور الممزوج بالزهو

— انى مدينة لك انت بهذا الهناء . اجل انى اسمى هذه الدعوة باسم الهناء ، لأنها أكثر من نصر اجتماعى يجيئها عن طريقك أيها الحبيب . فما من أحد رضى أن يقدمنى الى المجتمع الراقى أو البلاط حتى جئت أنت . .

— ولـكن ألم يبد لك أن الفيكونتس قد أظهرت فى خطابها رغبتهـا عن حضور البارون معك . ؟

— أجل هذا واضح ، ولـكن ماالضير ؟ سأذهب وحدى معك . ان شقيقتى ستكون

هناك . ولقد نما الى أنها تستعد لهذه الحفلة بثوب رائع . انها تتظاهر بالمرح فى هذه الحفلات فى المدة الأخيرة لتخفى سرها الهائل : فقد استدان مكسيم دى تراى مائة ألف فرنك وقت سدادها وتهدده الفضيحة ، فأقدمت البنازى على بيع جوهراتها الثمينة ، جوهرات أسرة زوجها التى تتوارثها كونتس دى ريستو من حماتها جيلا بعد جيل . ويقال أن زوجها قد اكتشف الأمر أو كاد . فأنا أتوقع فى هذه الحفلة أن تكون شقيقتى فى أبهى زينة لتقطع ألسنة القائلين وستجتهد على الخصوص فى ذلك لأننى سأكون حاضرة وهى تحب دائماً أن تتفوق على . ولكنى فى هذه المدة سأتفوق عليها ، ولو بنور السعادة التى يشع من وجهى بحبك

وافترق العاشقان على موعد اللقاء الذى لا فراق بعده

وهكذا بات ايجين ليلته على ثقة من أنها ليلته الأخيرة فى خان فوكير . فلما مر الفتى بباب جوريو حاول الشيخ ان يستوقفه ، ولكن الفتى قال له وهو يمضى :

— غدا سأقص عليك كل شىء ، أما الليلة فدعنى أنام لأننى متعب ، ولأن الانتقال الى مسكننا الجديد سيحتاج الى جهد جهيد



دلفين عند أبيها

وفى اليوم التالى كان إيجين وجوريو على أتم أهبة لمغادرة الخان عند حضور حاجب من لدن البارونة يخبرهما أن الوقت قد حان . ولكن قرب الظهر سمعت فى الشارع الهادىء ضجة عربة فارهة تقف أمام باب الخان مباشرة ، ونزلت منها البارونة دى نوسنجين وسألت إذا كان أبوها لا يزال موجوداً بالخان . فلما أجابتها سيلفى الطباخة بالايجاب أخذت تصعد الدرج فى خفة . وكان ايجين فى حجرته والأب جوريو يظنه قد غادر الخان الى المدرسة ، ذلك أنه عاد ليتأكد من أنه لم يترك من خصوصياته فى الحجرة لم يضمه فى حقائبه . وسر كثيراً عندما وجد فى درج النضد ذلك د الذى كان قد كتبه فوتران واسترده منه ايجين فى اليوم التالى . ولما كانت المدفأة خالية من النار فى هذا الوقت فقد فكر فى تمزيقه ، عندما سمع صوت دلفين فأنصت ليتبينه اعتقاداً منه أنه ليس لها أسرار تطويها عنه . ومن أول عبارة سمعها وجد الحديث شائقاً بحيث استمر فى الاصغاء إليه :

— الحمد لله يا أبى انك طلبت رسمياً فى الوقت المناسب فصل ثروتى الخاصة عن ثروة نوسنجين قبل أن يلحقها الخراب

— ماذا حدث إذن حتى لم تطيق صبراً بضع دقائق أخرى نكون بعدها معاً فى شارع دارتوا

— آه يا أبى ! وهل تكون للانسان سيطرة كاملة على أفعاله وحركاته حين تلم به كارثة من الكوارث ؟ لقد طار صوابى ، فقد أطلعنا محاميك على الكارثة قبل أن يذيع خبرها بين الكافة ، فان المحامى لما رأى زوجى يلم من الاعتراضات والعقبات المفتعلة شيئاً لا آخر له حتى لا يؤدى إليه بائنتى ، هدده بقضية مستعجلة وباقامة حارس قضائى . فدخل على نوسنجين هذا الصباح وسألنى هل أسعى إلى خرابه وافلاسه سعى مجتهد ؟ فأجبته أنى لا أعرف شيئاً من هذه الاجراءات ، وأن كل ما أريده هو مالى الخاص الذى يجب أن يكون تحت يدى ، وأن كل ما يتصل بأمر هذا المال موكول إلى المحامى . أليس هذا يا أبى ما أوصيتنى أن أقوله ؟

— أجل

— فشرح عندئذ يبسط أمامى موقفه المالى ، فقد ألقى بجميع ما تحت يده من الأموال — ومنها بائنتى طبعاً — فى مشروعات ناشئة لم تأت منها أية ثمرة بعد . فاذا ألزم برد بائنتى فى الوقت الحاضر اضطر إلى تقديم دفاتره واعلان افلاسه . فى حين أنى إذا أمهلته عاماً آخر فانه

يتعهد بعرفه أنه يرد إلىّ مالى ضعفين أو ثلاثة أضعاف . ولقد لمست فيه يا أبى حرارة الصدق ، وأقبل على متوسلا مستغفراً عما سلف منه فى حقى من سوء المعاملة ، ورخص لى فى الحياة على هواى ، لا رقابة له على شأن من شؤونى أو مسلك من سلوكى ، بشرط أن أدع له حرية التصرف فى مالى باسمى . ووعدنى أن يستدعى محامينا قبل كل عمل خطير تتأثر به ثروتى . وطلب كذلك أن يظل ميزان الصرف على حاله فلا أنفق فى الوقت الحاضر أكثر مما يسمح لى به، وبرهن لى على أنه يوضعه الراهن فوق ثروته ولكن ستر الظاهر ضرورى. ومما دلنى على صدق هذا الزعم أنه سرح الراقصة التى كان يحوزها . فلما شددت عليه النكير وكابرت فى التسليم بصدقه ، قدم لى دفاتره وأطلعنى على الحقيقة المؤلمة ، ثم بكى ، وجعل يتكلم عن الانتحار وكأنه جن ، فهو يهذى ويهرف حتى أخذتنى به الشفقة

— وهل انطلت عليك هذه المزعبلات ؟ انه ممثل . سلينى أنا فقد احتككت بالأمان فى ميدان الأعمال ، وهم فى الغالب حسنو النية مستقيمون ، ولكن إذا خطر لأحد منهم أن يتصل الخبث تحت ستار الطيبة والصراحة ، فانه يغدو ثعلباً ذا دهاء . ان زوجك يستغل طيبة قلبك ويريد أن يستغل اسمك أيضاً كما استغل ثروتك فى أعماله المهددة بالخراب . كلا ! لن أرضى هذا لك ، فما زلت خبيراً بالتجارة عارفاً بأسرار الأعمال . انه يزعم أنه وضع جميع الأموال فى مشروعات ناشئة . فهو إذن يملك تحت يده أسهماً واتفاقات فى مقابل هذه الأموال. فليقدمها إذن وليحول إلينا نصيبك منها بحسب ما يخصك . وأعدك أن أختار أحسن هذه الأسهم وأكثرها ضماناً . أم هل يظن بنا الغفلة وقصور العقل ؟ أم تراه يحسبنى أصبر يومين لا عامين على تركك بلا مال وبلا سند فى الحياة ؟ هذا أمر لن أقبله أبداً ، أم هل ترانى أكدح أربعين سنة مديدة لكى ينتهى الحال بترككما مجردتين من ضمان لقمة العيش، ولكى أرى كل هذا التعب والاجتهاد يتبدد أمام عينى كما تتبدد حلقة من الدخان ؟ وانى لأقسم بكل مقدس فى الأرض والسماء انى سأسوى الأمر معه بما يصون مصالحك ويرد عنك شره هذا المحتال . سأراجع دفاتره ، ولن يغمض لى جفن أو أهنأ بطعام أليم به أودى قبل أن أتحقق من صيانة أموالك كاملة. وإذا لم تسعفنى المحاكم التجأت إلى البرلمان . سأقلب الدنيا قبل أن أسلم لحظة واحدة بتجريدك من هذا الملايين التى شقيت طول حياتى لأوفره لك . يا إلهى ! إن ناراً حامية لتستعر فى صدرى وأحشائى ، وكأن حريقاً هائلا قد شب فى دماغى . دلفين ابنتى لا تملك شروى نقير ؟ كلا وربى ! أين قفازى ؟ هيا بنا ! هيا بنا لنطلع على الدفاتر الآن ونضع يدنا على المراسلات والخزينة ونفحص كل شىء فى الحال . فلن أعرف النوم طعماً قبل أن أطمئن عليك . هيا قبل أن تسنح الفرصة ليهرب بما اختلسه من مالك ، لأنه موقن أننى لن أطلع بالوحل ذلك الاسم الذى تحمله ابنتى

— مهلا يا أبى ! إنى أشفقت عليك ولم أصارحك بكل شىء . أتدرى ماذا فعل هذا الوغد فى التحقيق ؟ أتدرى ما هذا الذى يسميه مشروعات ناشئة لا تزال ملقيا ؟ انه يشترى الأرض

القضاء باسمي ثم يبني فوقها بيوتاً تحت ستار أشخاص آخرين يتعاقدون مع المقاولين على تسديد التكاليف على آجال طويلة ، ثم يبيعون زوجي البيوت بعد أن تم بثمن بخس ، ويعلنون بعد ذلك افلاسهم للتخلص من ديونهم قبل المقاولين . أما المبالغ ذات القيمة التي تحت يده فانه يشترى بها عقارات وأسهما باسمه خارج البلاد ، بحيث لا تصل إليها أيدينا

وفي هذه اللحظة سمع إيجين صوت سقطة قوية ، فقد انهار الأب جوريو على أرض غرفته وهو يصيح بصوت متحشرج :

— وا رحتاه لك يا ابنتي ! لماذا رضيت أن أسلمك لهذا الوغد الذي اعتصر دمك واشلاك ؟

— وهل تدرى يا أبي اللص الذي قصد إليه بمنحي الحرية ؟ انه يعني بذلك مساومتي على ترك الحبل لي على الغارب في علاقتي بايجين في نظير تحويلي اياه للمضي في استغلال ثروتي . فهو يريدني أن أدفع هذا الثمن إذا شئت إلا أعتقل في البيت فلا أتصل بايجين . ولكن لماذا تلوم نفسك الى هذا الحد ؟ ان الخطأ خطئي أنا لأنني أنا التي تخيرت هذا الزوج ، فلا تبك يا أبي

— ولا تبكي أنت أيضاً يا دلفين . قربي عينيك حتى أجفف دمعهما بشفتي . هه ! انهضيني لأستعد لمحاولة هذا النصاب

— بل دعني أنا أتصرف في الأمر ، فهو يحبني وأنا مستطيعة أن أستغل سلطاني عليه لاستخلاص جزء من حقي . ولكن تعال غداً لتطلع على الدفاتر ، فالمحامي لا يفقه شيئاً في الأساليب التجارية . بل ليس غداً ، فاني لا أريد أن أكدر دمي في اليوم السابق للحفلة الراقصة الكبرى عند الفيكونتس دى بوسيان ، بل أريد أن أبدو جميلة سعيدة في صحبة عزيزي ايجين. فهيا بنا لأرى حجرته ...



المصائب لا تأتى فرادى

ولكنهما لم يتحركا من موضعهما، لأن صوت الستازى دى ريستو سمع فى السلم، وهى تصعدها نهباً إلى حجرة أبيها ، فأعقد حضورها فى هذه اللحظة ابجين من انكشاف وجوده فى حجرته وسماعه هذا الذى سمع

فلما سمعت دلفين صوت أختها ، قالت لأبيها :

— آه ! ألم يبلغك شيء عن الستازى ؟ فانه يخيل إلى أنها تعانى متاعب هى أيضاً فى بيتها

— ماذا تقولين ؟ هذا فوق ما أحتمل . ان هذه تكون ثالثة الأثافى وقاصمة الظهر ! أما تأتى المصائب أبداً فرادى !

ودخلت الكونتس ، فأدهشها أن تجد دلفين عند أبيها فى هذه الساعة ، وشعرت بشيء من الحرج والضيق . فقالت لها دلفين :

— أهلا « نازى » ... أيدهشك أن ترينى هنا ؟ لا تستغربى هذا ، فانى أنا أراه يومياً ولا أقصر فى ذلك !

— منذ متى ؟

— لو كنت تأتين لزيارته ، لعرفت منذ متى ...

— دعى المناكفة باقه يادلفين فانى امرأة شقية ... أدركنى يا أبى ، فقد قضى على القضاء الأخير هذه المرة

— ماذا ألم بك يا ابنتى ؟ صرحى بكل شيء ، وأنت يادلفين تلطفى معها ، فيجب أن نتعاون فى وقت المحنة ... فان هذا يجعلنى أحبكما أكثر مما أفعل ، لو أن هذا فى الامكان !

فقالت دلفين وهى تربت على أختها وتساعدها على الجلوس :

— تكلمى يا « نازى » ، فأمامك الشخصان اللذان يحبانك فى هذه الدنيا حباً خالصاً لا شعبة فيه ولا زغل ...

وقربت من أنفها « الأملاح » حتى يفرخ روعها ، فلما استردت هدوءها قالت فى أسى :

— سأموت يا أبى ! ان زوجى علم كل شيء . أتذكر يا أبى ذلك الدين الذى كان مستحقاً على مكسيم منذ مدة ؟ انه لم يكن الأول من نوعه ، فما أكثر « الشيكات » التى يحررها ولبس عطاياها مايغطيها ... وكم من مرة قمت بدفع قيمتها . ومنذ أكثر من شهر بدا لى مكسيم كثير

الشرود ، ولكنه لم يصرح لي بشيء ... بيد أن المرأة تحذق قراءة سرائر الذين تحبهم . ثم اني لاحظت مبالغته في الرقة والتوله .. فالمسكين كان يودعني بهذه الرقة الوداع الأخير ، لأنه كان عازما على إفراغ مسدسه في جبهته . فشددت عليه ، وضيقت الخناق ، حتى اعترف لي بالحقيقة بعد أن ظللت راكعة على ركبتي أمامه ساعتين ، أتوسل ، وأبتهل ! فهل تدرى كم فرنكا قيمة الشيك الذى حرره بلا رصيد ؟ مائة ألف فرنك ! لجن جنوني يا أبي ، فلست تملك هذا المبلغ ، لأنني أتيت على كل ما كان باقياً لديك من ثمالة ثروتك ...

— أجل يا ابنتي ، ليس معي هذا المبلغ ، ولا طاقة لي بالحصول عليه ، اللهم إلا إذا سرقته ... ولكني كنت مستعداً أن أسرقه .. وسأسرقه لك إذا شئت !

وأمام هذه الصيحة التي لاتنبعث إلا من قلب استبد به الألم ، ووقف بصاحبه على أبواب الجنون ، وجمت المرأتان ، وقد تحرك قلباهما لهذا الشقاء المبرح الذى أورثتاه والدهما العطوف .. ان كارثتهما هى التي سببت له هذا ، فندت عنه هذه الصرخة التي كأنها حجر ألقى به في هوة جبة النور ، فكشف من مبلغ عمقها البعيد ...

وقالت له اناستازى وهى تنخرط في البكاء ...

— لقد فعلت أنا هذا بدلا عنك يا أبي : فقد تدبرت هذا المبلغ بالتصرف بما ليس ملكا لي !

فاحتضنت دلفين أختها وبكت على صدرها وهى تصيح :

— وا أسفاه ! إذن كل ماقيل صحيح ..

وتأثر والدهما لهذا التعاطف الذى جاء متأخراً فصاح بهما :

— لماذا لم يجتمع قلبا كما يا ابنتي إلا على خطب داهم ؟ ..

واستطردت الكونتس وهى تجفف دمعها عبثا :

— .. فلكي أنقذ مكسيم من الفضيحة والعار ، وأنقذ حياته من الانتحار ، ولكي أنقذ هنائي المطلق بشخصه ، جمعت مجوهرات أسرة ريستو ، التي قدمها لي زوجي لأتحلى بها فقط ، وحملتها الى مراب يهودى قاسى القلب ، يدعى « كوبسك » ، و ... بعتها ! بعتها وأنقذت حياة مكسيم . . . ولكنني وضعت حياتي أنا تحت الخطر بدلا منهـا . فقد عرف ريستو كل شيء . . .

فصاح جوريو محنقاً :

— من الذى قال له ؟.. من هو ؟ سأقتله !

— .. بالأمس دعاني لموافاته في حجرته ، فلما ذهبت قال لي بصوت بارد كالثلج : « أين المجوهرات ؟ » قلت له « عندى . في دولابي » فأجابني بنفس الهدوء القاتل : « كلا ! انها هناك ، فوق هذا النضد ! » ونظرت فاذا هى موضوعة تحت منديل غطاها به ، وقال لي : « والآن تعرفين طبعاً من أين أحضرتها الساعة » : فسقطت تحت قدميه على ركبتي باكية ، وقلت

له أنى أمته ، وأن له أن يختار لى الميتة التى يرضاها ..

— ألك له هذا حقاً يا ابنتى ؟ أقسم برب العزة والجبروت أن من مس شعرة واحدة من شعر رأسك ليدفعن ثمنها حشاشة روحه ! إنى أقطعه اربا اربا مثل ...

واختلت الكلمات على فم الشيخ الهائج بالغضب ، فسكت ، وقالت بنته :

— بل هو قد طلب منى ما هو أقسى من الموت وأدهى . . . ولا كتب الله على امرأة فى الدنيا أن تسمع مثل هذا الذى سمعت منه على كره منى

— سأقتل هذا الرجل ! سأخنقه بيدى ! سأقطع أوصاله ! ولكن الملعون ليست له إلا حياة واحدة تزهق . تمنيت لو أن له مائة حياة لأزهقها كلها واحدة بعد واحدة !

— لقد نظر إلى برهة وهو صامت ثم قال لى : اسمعى يا انجنازى ، انى مستعد أن أجر على ما حدث ذيل الصمت ، فنبقى معا ، فان لنا طفلين يحملان اسمنا . وسوف لا أقبل بحكيم دى ترأى لأن المبارزة قد تؤدى إلى قتلى ، وإذا قتل هو تعقبنى سلطة القانون ، واما قتله وأنت فى أحضانه فانه يلطخ اسمى واسم أسرتى بالعار . فابقاه عليك وعلى الطفلين وعلى أنا أعرض عليك شرطين . فهل فى هذين الطفلين ولد من صلبى ؟ فقلت له : « أجل » فسألنى : « أيهما ؟ » فأجبته : « ابننا البكر أرنست » فقال : « حسناً ! والآن السمى أن تطيعينى فى أمر واحد » فأنصت ، فقال : « عليك أن توقعى عقد بيعك كل ماتمتلكين لصالحى متى طلبت اليك ذلك »

— لا توقعى ! لاتقبلى هذا أبداً ! ماذا إذن يا سيد دى ريستو ! ماذا تظننا ؟ وماذا نظن نفسك ؟ انك لاتعرف كيف تسعد امرأة ، فاذا نشدت السعادة حيث وجدتها ذهبت تعاقبها على عجزك . ولكننى هنا وقف عند حدك لأنى واقف لك فى الطريق ! أجل يا ابنتى ، اهدئى بالاء فانه قد عرف الآن وريثه ، ولكنى سأختطف هذا الوريث ، سأختطف ابنه ، الذى هو للأسف حفيدى ، فأخفيه فى قريتى ، ولكن لاتخافى ! فسأحافظ عليه كنور عينى ، ثم اضطره الى رفع الراية البيضاء بأن أقول له : « إذا أردت استرداد ابنك ، فأعد إلى ابنتى جميع ممتلكاتها ودعها تحيا على هواها »

— أبى العزيز !

— نعم نعم أنا أبوك العزيز ! أبوك يعمى الكامنة ! أيظن هذا النبيل أنه مطلق التصرف فى حياة ابنتى ؟ يا للسماء ! لست أدرى ماهذا الذى يسرى فى عروق كالحميم ! إنى أحس كما لو كنت قد اقتلبت نمراً هائجاً . ولا عجب فأنتما عندى الحياة كلها . ولكن ماذا عساكما تعملان حين يطوينى الموت ؟ ربى ، لماذا لاتطيل عمر الآباء ماطالت أعمار بنيهم حتى يحوطوهم بالرعاية حتى النهاية ؟ إن الآباء قلوبهم متعلقة ببنيهم فكيف سمحت رحمتك أن تدعهم فيهم بمكروه ينزل بهم ؟ آه ياابنتى ! هاأنتما تجيئمان بى أخيراً كما كنا فى العهد الخالى قبل أن يفسد الاصهار

حياتي . ولكني وأسفاه مدين للخطوب والنوازل بهـذا الاجتماع ، فلا أحظى برؤيتكما إلا والدمع يخضل وجنتيكما ! ولكن لاعليكما ، فان قلبي كبير ويتسع لآلامكما وفي استطاعته أن يحملها عنكما . ماذا ؟ بل انكما لو حطمتما قلبي لصلحت كل قطعة متناثرة منه أن تكون قلبا أبويا ينبض بحبكما ويألم لكما

— ولكن هذا ليس كل شيء يا أبي

— أهناك شيء آخر أيضا يا الـتازي ؟

— أجل . فاني لم أتمكن من بيع المجوهرات بمائة ألف فرنك كاملة ، فأقيمت الدعوى على مكسيم وان لم تنظر بعد ، فلا يزال ينقصنا اثنا عشر ألف فرنك . وقد وعدني أن يقلع من الميسر . وأنت تعلم أنه لم يبق لي في الدنيا إلا حبي له ، فلا أطيق أن أحرم منه بعد أن دفعت ثمنه غاليـاً من راحتي وثروتي وصحتي وأمن سربي ، بل وأولادي . فاجتهد يا أبي في إنقاذ حريته وشرفه حتى يتسنى له أن يكون لنفسه ثروة من جديد ، فلا يخرج ابننا إلى العالم مجرداً من كل درهم ، لأن ريستو سيحرمه من ميراثه كله ولامراء

— وا أسفاه ، لست أملك هذا المبلغ . فلم يبق عندي شيء يساوي هذه القيمة ، فليس لي إلا مايمدني بدخل لايزيد على ألف ومائتي فرنك في السنة مدى الحياة

— وأين ذهب ايرادك الدائم ؟

— بعته غير محتفظ إلا بهذا الشيء البسيط لحاجاتي الضرورية فقد احتجت إلى اثني عشر ألف فرنك لتأثيث وكر صغير لدلفين

— فهمت . من أجل دي راستنياك اذن . يا شقيقتي المسكينة ، اتعظي بما حدث لي ودعي هذه النزوات

— ولكن دي راستنياك يا أختاه شاب مهذب لايقدم على تحطيم حياة عشيقته

— شكراً لك يادلفين ، فقد كنت أتوقع في محنتي أن تكوني ألطف من هذا ، ولكنك لم تحبيني قط

— وهل أنت التي تحبينني ؟ ألم تطارديني بدسائسك في كل مكان وتعملي على إغلاق جميع الأبواب في وجهي ؟ وهل كنت أنا آتي الى أبي كل يوم لأبتز منه ألف فرنك في إثر ألف فرنك حتى أتيت على جميع ماكان يدخره وانتهيت به إلى هذه الحالة ؟ هذا عملك يا أختاه وفعل يدك . أما أنا فكنت أحضر لرؤيته لغير غرض ، ثم انا لم أعلم الا في هذه اللحظة أنه انفق في سبيل هذه الاثني عشر ألف فرنك . ثم ليس من عادتي اذا أهداني أبي شيئاً أن أبدده وأبيعه

— أنت تقولين هذا لأن عشيقك دي مارساي شاب غني لم يكلفك شيئاً . وداعا ، فليس لي في الدنيا أخت ولا . . . .

فصرخ الأب جوريو :

— اخرسي . . ماذا جرى لكما حتى تتخاصما هكذا أمامي ، أتريدان أن تقضيا على القضاء الأخير ؟ ! . . .

— اني أغفر لك يا نازي ، فأنت مسكينة شقية . . لهذا لا أحاسبك على جميع ماسلف منك في حق من المكائد طيلة السنوات السبع الماضيات

— يا بنتي العزيزتين ، تعانقا وتصافيا فكلا كما ملك كريم . فصاحت الكونتس معرضة وهي تدفع عنها يد أبيها :

— كلا . . دعني . . انها أقل رحمة بي من زوجي نفسه

— يا أختي اني أفضل ألف مرة أن تقول على بأني مدينة لدى مارساي من أن يقال عني أن عشيق دي تراي كلفني مائتي ألف فرنك كما كلفك

وهنا ابتدأ الشجار ينتقل من التراشق بالألفاظ الى الرغبة في التماسك بالأيدي . فاندفع الأب جوريو يحول بينهما ، ثم أخذ الكونتس بين ذراعيه ليهدىء روعها ، ووضع كفه على فمها ليمنعها من الاسترسال في سب أختها ، فاذا بها تصيح به في اشمئزاز :

— ما هذا يا أبي ؟ ما هذه الرائحة العالقة بيدك ؟

فخجل الرجل الطيب وأخذ يعتذر اليها قائلا وهو يمسح يديه في بنطلونه :

— لا تؤاخذيني ، فما كنت أعلم أنك آتية في هذه الساعة ، وكنت منهمكا في ترتيب حوائجي . . !!

وكان الرجل قد سر بتحول جانب من غضب ابنته اليه . أما دلفين فرأت لما حدث أمارات الألم المبرح مرتسمة على وجه شقيقتها . . فقالت لها في إخلاص :

— سامحيني يا أختاه فقد أخطأت .. تعالى قبليني

وتعانقت الفتاتان فسرى عن الرجل ما كان يجده . وعاد الى التفكير في مشكلة بنته الكونتس فأخذ يجذب شعر رأسه ويقول :

— آه لو كنت أعلم مكانا أسرق منه هذا المبلغ ، ولكن حتى السرقات أصبحت عسيرة في هذه الأيام .. لم يبق إذن إلا أن أموت ، ما دمت قد بت ولا نفع في لبنتي . ابنتي تحتاج الى شيء وتطلبه مني ولا أستطيع ان أقدمه لها ؟ ما قيمة الحياة بعد هذا ما دمت لم أعد أبا صالحا . ! !

وأخذ يدق رأسه بكلتا يديه كمن به مس . فأقبلت ابنتاه عليه تمنعانه وتحاولان تهدئته ، فأنشأ يبكي . فما كان من أوجين الذي كان لا يزال واقفا في غرفته يتسقط السمع إلا ان تناول أمر الصرف الذي كان فوتران قد أعطاه إياه ، وصحح الرقم لجعله اثنى عشر ألف فرنك لأمر السيد جوريو ، ودخل حجرة الشيخ فوجه الخطاب الى الكونتس دي رستو قائلا :

— هذا هو المال الذي تطلبينه يا سيدتي . فقد كنت نائماً فأيقظتني مناقشتكم الحامية ، وعرفت منها القيمة الحقيقية للمبلغ الذي يدينني به السيد جورجو . وأنا أعد بصرف أن أدفع المبلغ ، فهو ممكن التحويل لأي مصرف

فرمقت الكونتس شقيقتها بنظرة صاعقة وقالت لها :

— أستطيع أن أغفر لك كل شيء يا دلفين إلا هذا . كيف تعلمين أن السيد ايجين موجود في الحجرة المجاورة ثم تستدرجيني لكي أبسط أسراري وتفاصيل حياتي الخاصة ، والسر الذي يكتنف مولد طفل ، والعار الذي يحيق باسمي ؟ اني أكرهك وألعنك ..

وسكتت لأن حلقها كان قد جف من شدة الغضب والغيظ فأسرع الأب جوريو يترضاها ويقول لها :

— ولكنه ابني وأخوك ومنقذك . قبليه إذن . انظري إلي كيف أحتضنه الآن وأقبله . يا ولدي العزيز : سأكون لك أكثر من أب . ولو كانت بيدي الشموس والكواكب لطرحتها تحت قدميك . تعالي يا انستازي قبليه فهو ليس بشراً ، ان هو إلا ملك كريم

ووقفت الكونتس ترمق الفتى في صمت كأنها تستطلع طلعه . فقال لها في أنفة وصدق :

— سيدتي . . ثقي أنني سأدفع وسأسكت

وفي هذه اللحظة صرخت دلفين ، لأن الشيخ كان قد سقط على الأرض في شبه إغماء ، فلما حلوا أزرار قميصه ورأى لفتتهم جعل يقول انه بخير ، وأنه طاري،بزول وشيكا ، فكل ماهناك أن شيئاً يضغط على جبهته ويسبب له دوارا . ثم تمتم :

— همي كله من أجل نازي . يا للبنت المسكينة . . فاني مشفق عليها من غوائل المستقبل المظلم تصالحا يا بنتي . .

وصاحت الستازي :

— لا أستطيع أن أصفح عنها . لن أنسى لها هذا . ولكن هلا وقفت يا أبي على هذا الاذن حتى أستطيع صرف قيمته ؟

— ماذا دهاك حتى تبيت ؟ ولكن اعذريني فقد فاجأني هذا العارض . وثقي أني سأذهب بأول فرصة لأقوم بما يجب نحو صيانة مصالحك من هذا الزوج الغليظ القلب . هاك توقيعي فاذهبي الآن وارسلي إلي خبراً أن المسألة سويت . وحاولي ان تلزمي مكتبي بادة الطفل

وبهت ايجين لهذا الحنان المفرط . فلما انصرفت الستازي أقبل على الأب جوريو فرفعه الى الفراش وجعل يتلطف معه . .

— بماذا تشعر الآن ؟

— برغبة شديدة في النعاس

ولم يلبث الشيخ أن نام وفي يده كف دلفين . فلما استغرق في النوم سحبت يدها واستأذنت

فى الانصراف ، ولكنها رغبت أولا فى مشاهدة حجرة ايجين التى سبق فيها ليلة أخرى بعد أن حالت حالة أبيها دون النقلة الى المسكن الجديد هذه الليلة

— رباه . انك أسوأ حالا من أبى المسكين . ولكنى مضطرة يا حبيبتى ، وسأحبك من أجل هذا أكثر وأكثر .. ولكن إذا أردت أن تكون لك ثروة فى يوم من الأيام فلا تبذر على هذا النحو واعلم أن مكسبهم مقامر كبير لا يستحق المساعدة ، وكان عليه أن يدبر هذا المال بوسائله الخاصة

وتمت إليهما أنة فأسرعا الى غرفة الأب جوريو ، فوجداه نائماً فى ظاهر الأمر ولكن عندما اقتربا سمعاه يتمتم :

— إنهما ليستا سعيدتين !

فأقبلت عليه دلفين تسأله عن حاله فقال :

— لا تقلق ، فبعد قليل سأنهض وأخرج . اذهبا أنتما واغنما لذاذات الحياة

وصحب ايجين دلفين الى دارها ، ولكنه رفض مشاركتها طعام العشاء متعجلا العودة ليطمئن على صحة الشيخ المسكين ..



بداية النهاية

ولـكن متاعب الأب جوريو لم تمنع ايجين من مواقاة دلفين فى الاوبرا الايطالية ، ومن الاستمتاع بالسهرة معها ، ومن العودة معها إلى مسكنه الجديد حيث شربا من كأس الهوى إلى أن فارقته دلفين فى الثانية صباحا لتعود الى بيتها . وكان هو مجهداً فآثر قضاء الليل فى هـذا المسكن ، ولم يصح من نومه إلا قرب الظهر حين وافته دلفين لترشف رشـفة أخرى من نبع الغرام ، وتتغدى مع حبيبها . فقد نسى الشاب فى ثورة الأعصاب المتشوقة للهوى أن الشيخ جوريو يشكو منذ الأمس ، وأنه وحـده وليس من يرعاه ، فلم يذهب ايجين لزيارته إلا بعد الرابعة مساء . فلما دخل قال له أحد النزلاء ان حالته زادت سوءاً وان بيان شون طالب الطب ملازم له ، وان الكونتس زارته مرة أخرى فلبث مهتاجا ثم ارتدى ملابسه وهم بالخروج فأغمى عليه ، فأسرع ايجين يصعد السلم ، ولـكن نادته مدام فوكير :

— كان من المتفق عليه أن تخليا حجرتيكما فى ١٥ الجارى . وها نحن أصبحنا فى يوم ١٨ . فيجب أن تدفعا لى الشهر الجديد كاملا . ولست أقول هذا من أجلك أنت ، فاذا ضمنت لى الأب جوريو فان كلمتك تكفينى

— ولماذا ! ألم لاتثقين به ؟

— أثق ؟ وإذا مات من يدفع لى الأجر ؟ إن بنتيه لن أظفر منهما بدرهم واحد . ولم يبق لديه من المتاع مايغنى حتى

— أنا المسئول عن كل شيء

وأسرع يصعد السلم وهو يرتعد رعباً ، فوجـد الأب جوريو فى فراشه يئن وإلى جواره طالب الطب . وابتسم الشيخ حين رآه وسأله :

— كيف حالها ؟ هل تمتعت بليلتها ؟

— هى بخير . . وكيف حالك أنت ؟

— لابأس

فتنحى بيان شون بايجين جانبا وقال له ان الشيخ لن ينجو إلا بمعجزة فلا تتعبه بكثرة الكلام . ثم ان علته مستحيل لأنه يجب أن يجنب كل مجهود جسـدى أو عصبى . وقد دعوت له مدير مستشفانا ولـكنه بعد الفحص قال ان لايمكن أن يدلى برأى قاطع قبل الغد

— إذن دعني معه قليلا واذهب أنت لتناول عشائك

فلما خرج يان شون سأل ايجين الأب جوريو عن سر حضور انستازي اليه في الصباح الباكر

— يالمسكينة ! لقد حرمها زوجها المتوحش من كل درهم منذ حادثة الجوهرات . وكانت قد أوصت من أجل الحفلة الراقصة على ثوب رائع ، ولكن خائطتها لم تقبل امهالها الدفع بعد أن شاعت قصة الجوهرات . فتقطع قلبي وجمعت القضيات التافهة التي كانت باقية لي ، وكنت آكل فيها ، فنزلت وبعتها وأعطيتها ثمنها حتى تستطيع أن تتسلم ثوبها وتفرح بلبسه في الحفلة، ثم هي متعلقة بالذهاب لتنفذ رغبة زوجها الذي يريدها أن تظهر فيها بالجوهرات التي شاع أنها باعتها حتى تسكت الألسنة المتخرصة .ولم تكف الفضة لوفاء الألف فرنك المطلوبه فبعت ايرادي هذا العام بأربعمائة فرنك تدفع مقدما ، انى أستطيع أن أصوم أو آكل الخبز القفار ، أما فتلك المسكينة فكيف تستطيع أن تتحمل ألم الحرمان من ليلة سعيدة ؟

— كفى كلاما وأنت متعب . نم واسترح ولا تتكلم

ولما صعد يان شون هبط ايجين ليتعشى ، ثم تناوبا معا السهر على فراش المريض ، وفي الصباح قال يان شون ان الحالة لم تزدد سوءاً . وفي الساعة السابعة مساء جاءت تيريز وصيفة دلفين بخطاب من سيدتها هذا نصه :

« ماذا تصنع ياصديقي العزيز ؟ وماذا شغلك حتى هجرت حبيبتك وأنا بعد في بداية غرامكما الملتهب ؟ لا أنسبك الى القلب وغدر العهد ، فأنت أوفى الناس . ولكن لاتنس أني أنتظرك الليلة لنذهب معاً الى حفلة مدام دى بوسيان الراقصة . وبهذه المناسبة اعلم أن اذن زواج الماركيز داجودا وقعه الملك اليوم وقد علمت الفيكونتس ذلك في الساعة الثانية ، فلا ريب أن كل من في باريس سيذهب الى حفلتها الليلة ليرى ماذا هى صانعة ، كما تزدحم الجماهير في الميدان العام لتشاهد تنفيذ حكم بالاعدام ... أليس هذا مؤلما ؟ انني لم أكن لأذهب لولا أن هذه أول دعوة أتلقاها منها ، ثم هي لن تقيم حفلات بعد اليوم فيما أعتقد . وهناك كذلك متاع مصاحبتك الذى لا أحب أن يفوتنى . فاذا لم أجدك بجواري بعد ساعتين فلا أظن أنى سأغتفر لك هذا الهجران »

فتناول ايجين قلماً وكتب اليها يقول :

« أنا الآن في انتظار حضور طبيب سيقرر هل يمكن أن يعيش والدك أم لا ، فحالته سيئة جداً ، وسآتى لأحمل اليك قرار الطبيب وان كنت أخشى أن يكون بالغ السوء ، وعلى ضوئه يمكن أن تقررى الذهاب الى الحفلة الراقصة أو الاعتذار عنها ، قبلاتى »

وجاء الطبيب بعد الساعة الثامنة ، وكان رأيه أن المريض ميؤوس منه ، ولكن مرضه قد يطول ، وأن حياته تتوقف على عدد النوبات ومبلغ عنفها . فترك ايجين المريض بين يدى يان شون وذهب ليحمل الى دلفين هذه الأخبار المؤلمة التى كان يقدر أنها ستقضى على كل اهتمام لديها بالمسرات الاجتماعية . وفيما هو يهم بالخروج تنبه الأب جوريو فصاح به :

— قل لها تستمع بالحفلة والرقص كما ينبغي

وذهب ايجين وحالة الشيخ تدمى قلبه فوجد دلفين متزينة متعطرة ، لا ينقصها إلا ارتداء ثوب الرقص ، فصاحت به :

— ما هذا ؟ ألم تلبس بعد ثوب السهرة ؟

— ولكن والدك يا سيدتي . . .

— أبي أبي أبي ! أتراني بحاجة الى أن أتلقى منك دروساً فيما ينبغي علىّ لوالدي ؟ كلا . لا تتكلم ! لن أسمع منك شيئاً إلا بعد أن ترتدي ملابسك . فتيريز وصيفتي قد أعدت لك كل شيء في مسكنك الجديد ، خذ عربتي واذهب الى هناك وتعال بها على عجل ، أما أبي فلدينا متسع ونحن في الطريق الى الحفلة الراقصة للكلام عنه . فالزحام سيكون شديداً ولا بد أن نذهب في وقت مبكر

— سيدتي . . .

— اذهب قلت لك ولا تنطق بكلمة واحدة

فذهب الفتى كما أشارت عليه وعاد وهو في أشد حالات السخط والأسى ، حتى لقد تمثل له العالم محيطا من الوحل اذا انزلقت اليه قدم إنسان غرق حتى الآذان ، وبدا له هذا الجحود وقد هانت في جانبه كبائر فوتران ، ففي فوتران أريحية لا وجود لها عند هؤلاء المترفات من ربات الغرور وربيبات التصور . وتكشفت له حقيقة عشيقته الجميلة الرقيقة ، فعرف أنها لا تحجم عن وطء جثة أبيها اذا لم يكن هناك طريق آخر الى حفلة راقصة تبهر فيها الأنظار . . . وعجب لنفسه أنه لا يزال بعد هذا يحبها ، بل ويلتمس لها المعاذير من جهلها بحقيقة حال والدها

فلما استقلا العربة الى قصر الفيكونتس دى بوسيان التفتت اليه وسألته عن أبيها وحاله :

— شر حال يا سيدتي . ويا حبذا لو مررنا الآن لعيادته

— سنعوده طبعا ولكن بعد الحفلة ، فلا تكن متزمتا

فوجم الفتى ، فسألته :

— ما بك ؟

— إن أنين أبيك يرن في أذني

ثم أخذ يقص عليها بطلاقة تفاصيل ما وقع لأبيها وزيارة أختها له وما سببته له من نوبة قلبية توشك أن تودي به من أجل ثوب تبدو به في حفلة الليلة . فدمعت عينا دلفين وقالت :

— لقد أبكيتني ، وأخشى أن يقرح البكاء أجفاني فأبدو في الحفلة قبيحة الشكل ، و . . . بودي الآن أن أذهب فألزم فراش أبي

— مرحى ! هكذا أمل فيك

ولكن مصابيح العربات الحصانية التي تتجه الى قصر دي بوسيان أخذت تتلألأ أمام عيني دلفين ، فقالت :

— سأذهب ، ولكن بعد الحفلة

وكانت الفيكونتس تستقبل المدعوين بكل بشاشة واتزان ، وقد أفلحت كبرياؤها في إخفاء حزنها الوجيع ، فبدت كأنها ملكة من ملكات الزمان الخالي ، أو كأنها فارس من فرسان الرومان يلقى الموت أمام الجماهير ويصارع الوحوش باسم الثغر . فلما رأت الفيكونت اوجين داخلا رحبت به بحرارة وأخبرته أنها بحاجة اليه ، ثم تأبطت ذراعه الى أريكة بقرب رجال الموسيقى وقالت له :

— اذهب الآن الى دار الماركيز ، وسيصحبك جاك الوصيف الى هناك ويعطيك خطابا تسلمه الى الماركيز أطلب اليه فيه أن يرد الي جميع خطاباتي وأنا واثقة أنه سيسلمها اليك جميعها . فاذا أعطاكها فاصعد الى حجرتي الخاصة وأرسل في طلبي

ونهضت كأنها لم تكن تنبش جراح قلبها الدامية لتستقبل صديقتها الدوقة دي لانجين التي وصلت في هذه اللحظة . وذهب اوجين حيث أمرته ، فألفى الماركيز عند آل روشفيد أنسبائه ، فصحب الماركيز الى قصره وسلمه صندوقا مقفلا وقال له :

— خطاباتها كلها بداخل هذا الصندوق

وكان يبدو على الماركيز أنه يريد أن يقول لاوجين شيئا ، لعله السؤال عن الفيكونتس وعن مدى احتمالها الصدمة ، ولكن كبرياءه حالت دون ذلك ، فقال لاوجين بعد لحظة صمت :

— لا تحدثها عني بشيء يا عزيزي اوجين

ثم شد على يد الفتى في تأثر وأسى . وفارقه اوجين الى قصر بوسيان فأدخله الخدم الى حجرتها الخاصة ، فما لبثت هي أن لحقت به فيها ، فوضعت يدها على كتفه ، ورأى الدمع في عينيها لأول مرة ، حين انتزعت منه الصندوق بيد مرتجفة فألقت به في نار المدفأة ووقفت ترقبه وهو يحترق ، وقد جف دمعها وجمدت معارف وجهها في أنفة وترفع ، فانقبض قلب الفتى لهذا الذي رأى ، وزاد إحساسه بحقارة الحياة وما تفيض به من آلام تكتوي بها القلوب الرقيقة الكريمة

ولم يفارق اوجين الفيكونتس تلك الليلة حتى انصرف جميع الناس وودعها وداعاً حاراً ، لأنها قررت منذ ذلك اليوم أن تعتزل المجتمع في ركن قصي من الريف

وكانت الساعة تقرب من الخامسة صباحاً حين فارقها عزوناً

نهاية النهاية

قضى ايجين المسافة بين قصر الفيكونتس وخان فوكير ـ وهى طويلة جدا ـ سيراً على قدميه تحت ندى الصبح الباكر الشديد البرودة ، برودة الهزيع الثانى من فبراير . واتصل على أثر وصوله الى حجرة جاره الشيخ ، فاذا بيان شون طالب الطب يطلعه أن الأمل فى إنقاذ الأب جوريو قد تلاشى . وأوى ايجين الى فراشه حزيناً ، فما انقضت ساعتان حتى أيقظه طالب الطب لينوب عنه فى ملاحظة المريض ، لاضطراره الى الخروج . وعلم منه ايجين أن حالة جوريو قد ازدادت سوءا :

ـــ إنه لا يعيش إلا ساعات ، ولكن ليس لنا أن ندع المحاولة وبذل المجهود لانقاذه . وهو فى حاجة الى علاج كثير التكاليف ، وليس معى أنا درهم واحد ، وقد ابتت جيوب الأب جوريو ودولابه فلم أجد لديه داعاً ، فكم معك أنت ؟

فقال ايجين :

ـــ لم يبق معى إلا عشرين فرنكا . ولكنى سأقامر بها وأكسب . . .

ـــ وإذا خسرت ؟

ـــ أطلب مالا من صهريه وبنتيه

ـــ وإذا لم يعطوك ؟ المهم الآن على كل حال ليس المال ، وإنما أن المريض بلفحة من قدميه الى منتصف الفخذ ، فى درجة الغليان ، فإذا صرخ كان هناك أمل فى شفائه . وسيساعدك كريستوف فى ذلك . ولا تغادره حتى أعود . وإذا طلب ماء أعطه مما فى هذه الزجاجة . . .

وتنبه الشيخ لوجود ايجين ، ففتح عينيه وسأله بصوت متضعضع :

ـــ هل تعتنا بليلتهما ؟

فصاح بيانشون :

ـــ إنه لايفكر إلا فى بنتيه . فقد قال لى الليلة الفائتة أكثر من مائة مرة « إنهما ترقصان الآن » . « انستازى تلبس الآن ثوبها الجديد . . . » وكان يناديهما باسميهما ، ويوجه اليهما كلاما أبكانى ، وأنا نصى الدمع

وعاد الشيخ يتمتم :

ـــ دلفين : إنها هنا ، أليس كذلك ؟ أنا أعلم أنها هنا

وتشنجت عيناه وهو يحدق فى جهة باب الحجرة ثم فى جدرانها . . فقال ياتشون :

— سأهبط لأوصى سيلفى بعمل اللبخ الحارة ، فهذا أوانها . . .

وبقى ايجين وحده عند لدى الشيخ الذى يجود بنفسه . . . ومع هذا فقد عرف ايجين بعد لحظات فى نوبة صحوة أخرى ، فسأله ايجين عن حاله فقال :

— أحسن . فقد بدأ الضغط الشديد على جبهتى يخف . هل رأيت ابنتى ؟ إنهما ستحضران بعد قليل . ستسرعان الى هنا متى سمعتا بمرضى . . . كم كنت أتمنى أن تكون الحجرة نظيفة حتى تليق باستقبالها ، وأن تكون فيها نار التدفئة

— إنى أسمع كريستوف صاعداً بخشب التدفئة

— خشب ؟ ومن أين لى ثمنه ؟ لم يعد لدى درهم واحد . . هل كان الثوب الجديد جميلا ؟ . . شكراً يا كريستوف . ولكن ليس معى شىء أدفعه اليك . . .

فقال ايجين لكريستوف همسا :

— سأدفع أنا كل شىء لك ولسيلفى . . .

وعاد الشيخ يقول للخادم :

— لقد قالت لك ابنتاى إنهما قادمتان يا كريستوف ، أليس كذلك ؟ إذهب اليهما مرة أخرى ، وقل لهما إنى متوعك ، وإنى أشتاق أن أقبلهما وأن أراهما مرة أخيرة قبل أن أموت . قل لهما هذا ، ولكن بدون أن تفزعهما

وانصرف كريستوف باشارة من ايجين واستطرد الشيخ المريض :

— ستأتيان ، فإنى أعرف الناس بقلبيهما . لعمرى ان هذه المسكينة دلفين ستحزن حزناً مبرحاً إذا أنا مت .. ونازى أيضاً .. لا أريد أن أموت حتى لا تبكيان .. والموت يا عزيزى ايجين معناه الحرمان من رؤيتهما ... فلا ريب فى أننى سأشتاق أينما ذهبت ، الى جنة صرت أو الى نار .. فالجحيم الحق لدى والد بمعنى الكلمة هو حيث لا يكون بنوه ... ولكننى قضيت سنوات التعذيب والتمرين على هذا الجحيم منذ تزوجت بنتاى ... أما نعيمى ، فكان فى بيتنا القديم فى شارع جوسيين ... واذا قدر لروحى أن تطوف بالأرض فى بعض الأحيان كما يزعمون أن الأرواح تطوف ، فلا ريب عندى أنها ستطوف بذلك البيت السعيد .. وإنى لأراهما الساعة كما كانتا فى تلك الدار ، تهبطان فى الصباح فتغردان فى سمعى : عم صباحا يا أبتاه .. فآخذهما بين ذراعى ، وأضعهما فى حجرى ، وأظل أداعبهما ساعة طويلة ، ثم نفطر معاً ، ونتغدى معاً ونتعشى معاً .. لقد كنت فى هذا الوقت أباً سعيداً . وكانتا متحابتين . رباه ! لماذا لم تبقيا صغيرتين ؟ .. آه ! ما أشد هذه الآلام التى تنتابنى .. ولو كانتا هنا ، وكانت يداهما الصغيرتان فى يدى ، لكنت أجلد وأقوى على احتمال آلامى الجديدة المبرحة .. فهل تعتقد حقاً أنهما ستأتيان ؟ كم كنت أتمنى أن أذهب أنا بدلا من كريستوف ، لأنعم بمرآهما ، أما أنا فباقٍ هنا !.. ولكنك

كنت معهما فى الحفلة الراقصة بالأمس يا ايجين ، خبرنى كيف كانتا تبدوان ؟ لم تكونا تدريان طبعاً مبلغ مرضى .. يا لهما من مسكينتين ! انهما لا تزالان فى حاجة الى ، وثروتهما تحوطهم المخاطر ... أشفونى سريعاً ، حتى أحاسب زوجيهما الوغدين ! اشفونى فلا بد لهما من المال ، وأنا أعرف من أين أحصل على هذا المال : سأذهب كما كنت أذهب وأنا فى شرخ الفتوة الى أوكرانيا واوديسا لأستورد القمح وأربح الملايين مرة أخرى من أجلهما . آه : ان أوجاعى تثقل على احتمالى ! . . وسكت الأب جوريو لحظة كأنما يستجمع قوته لتحمل آلامه ثم تمتم :

— لو كانت ههنا لما شكوت .. ولماذا كنت أشكو ؟

ثم هدأت أنفاسه برهة طويلة حتى ظنه ايجين قد نام ، فلما دخل كريستوف تركه يفضى اليه بما لديه بصوت مسموع :

— سيدى ، لقد ذهبت أولا الى سيدتى الكونتس ولكنى لم أستطع مقابلتها لأنها مشغولة مع زوجها بأمر ذى بال . فلما ألححت خرج الى الكونت بنفسه وقال لى : أتقول ان السيد يحتضر ؟ لكن خيرما يستطيعه أن يموت . أما الكونتس فأنا فى حاجة اليها فى الوقت الحاضر لاتمام مسألة مهمة ، فاذا أتمتها ذهبت اليه . وكان يبدو عليه الغضب فلما هممت بالخروج اذا بالكونتس تظهر فجأة وتقول لى : « قل لوالدى يا كريستوف انى مشغولة بالباحثة مع زوجى ولا أستطيع ان أتركه الآن لأن الأمر يتعلق بحياة طفل أو موتهما ، ولكنى سأذهب اليه متى فرغت من تسوية هذا الموضوع » . أما البارونة فلها قصة أخرى : فقد قالت لى وصيفتها: « لقد عادت سيدتى من المرقص بعد الخامسة صباحاً وهى الآن لا تزال نائمة ، وإذا أيقظتها عاقبتنى . ولكنها متى استيقظت سأخبرها بسوء حال أبيها » وتوسلت اليها بلا جدوى ، فطلبت مقابلة البارون فقيل لى أنه خرج

فصاح راستنياك مغيظا :

— أما من واحدة منهما تخف الى أبيهما ؟ سأكتب اليهما

فقال الشيخ المريض :

— أجل ما من واحدة ! فكلتاهما مشغولتان إما بالمشاكل أو بالأحلام . كنت أعلم أنهما سوف لا تأتيان . ويظهر أن الانسان لا يمكن أن يعرف حقيقة أبنائه إلا حين يحم قضاؤه . فاسمع نصيحتى يا ولدى ولا تتزوج ولا تنجب أولادا لأن بنيك فالوك لاعالة . تخرجهم الى الدنيا فيخرجونك منها . كلا إنهما سوف لا تأتيان . ! وكنت أعلم هذا منذ عشر سنين وكنت أردده بينى وبين نفسى فى بعض الأحيان ولكننى لم أجد فى نفسى من الشجاعة كفاء تصديقه

وجالت فى عينى الشيخ دمعتان وقتا حائرتين بين المقلة والجفن دون أن تبلا منهما

— ... آه .. لو أنى كنت غنياً ولم أنزل عن ثروتى لهما ، لكانتا الآن الى جوارى تلفان خدى بقبلاتهما ، ولكنت الآن فى قصر مشيد جليل الحجرات ، زاخر بالخدم ، تدفئه النار بغير

حساب ، ولكانتا الساعة لا يرقأ لهما دمع الى جوار سريرى هى وزوجاهما وأطفالهما . اما الآن فلا شىء من هذا كله ، لأنى بلا مال ، ولأنى أعطيت كل ما يمكن ان أعطى . كلا ! بل انى أفضل هذا الفقر المدقع الذى صرت اليه ، فان الفقير اذا شعر أنه محبوب أيقن ان هذا الحب خالص لذاته حقاً ؟ . كلا ! بل ليتنى كنت لا أزال غنياً ، فانه لا يحق للأب ان يكون فقيراً ، فما له هو اللجام الذى تجتمع به فى يده أعنة بنيه ! رباه .. هاهما تتوجان ماسامتانى إياه عشر سنين سوياً .. يا إلهى ! إنك تعلم كم قاسيت منهما وكيف شربت من يديهما كؤوس الإذلال مترعة حتى الثمالة ، وكيف كانت شمس كل صباح تدخر لى طعنة من خنجر مسموم تغوص فى سويداء قلبى بسببهما أو من يدهما ، فلماذا يا إلهى تعرضنى اليوم لهذا العذاب الجديد ؟ ألم يكف ما تحملته تلك السنين العشر للتكفير عن جريمة حبي إياهما حباً أعظم مما ينبغى ؟ ان ابنتى كانتا هما الشر الذى صنعت أمام الله . كانتا هما موضوع خطيئتى ورذيلتى ! ان ابنتى كانتا عشيقتى ، كانتا تخزى انى أدمن عليها ، واليسر الذى لا أصبر عنه . وكم من مرة كنت أرى فى عينيهما انهما تخجلان منى ومن جهلى بآداب السلوك فى دنياهما الجديدة . ولكن لم تكن سنى تسمح بادخالى المدرسة من جديد .. رأسي تؤلمنى . آه لو فتحها لى الطبيب ليخف بعض هذا الضغط عليها .. بنتى انستازى دلفين ! ! أريد أن أراهما . . ارسلوا اليهما الشرطة لتحضرا ولو بالقوة ! القضاء والقانون والطبيعة فى جانبي لإجابة هذا الطلب ! الى أين ينحدر الوطن والى أي هاوية يساق المجتمع إذا كان الآباء يداسون بالأقدام كما أداس ؟ أريد ان أراهما وأسمع صوتهما ، مجرد صوتهما ، حتى ولو كانتا تقذفانى بالشتائم . ولكن قل لهما إنما هما حضرتا لا تنظرا الى نظراتهما الفاترة كما تعودتا ان تفعلا معى ، وان كنت أتجاهل انى لا أشعر بهذا الفتور . فقد أحببتهما كثيراً بحيث ارتضيت لنفسى مهانة ان أختفى وأتوارى لأراهما خلسة وهما تجتازان الطريق فى حفل من زينتهما وركبهما الفاره . ولكن ها أنذا أموت ميتة البعير ولا تخفان لرؤيتى فى ساعتى الأخيرة . أريد ابنتى ! أريدهما ، فأنا الذى صنعتهما

وتوفز جُلس فى فراشه وقد تشعث شعره الأبيض وتشنجت عيناه فهو فى حالة من الهياج العصبي الخطر ، فأخذ يهدئه ايجين :

— نم يا أبى فسأكتب إليهما ، ومتى حضر بيان شون سأتوجه إليهما بنفسى ان لم تكونا قد جاءتا

فأخذ الشيخ المريض ينشج بالبكاء ويقول :

— ان لم تأتيا ؟ إنى اذ أموت دون أن أراهما انشق غيظاً وينفطر قلبي كمداً ! بل ان الغيظ والكمد ليستوليان على وجدانى الساعة ، فها أنذا أرى حياتى كلها فى هذه اللحظة كما لم أرها من قبل ، فقد انقشعت عن عيني غشاوة الغفلة التى زودتنى بها عاطفة الأبوة المفرط . ما دامتا لم تأتيا حتى الآن ، فهما لن تأتيا أبداً . ولكن لا يأس من رحمة الله ، فسيتولى أبناؤهما الانتقام



« احتمال لري .. هغوا شپه کې راشي .. هغوا دونها پدې باني »

لى . ماذا أقول ؟ بل هذه هى دلفين . ألم أقل لك من قبل أنها هنا.انها خير الاثنتين.فأوصيك بها يا ولدى إيجين خيراً ، أحبها وكن لها أباً من بعد أبيها . أما الأخرى فسكينة ليس لها فى الدنيا من يرعاها . آه . لقد زاد على الوجع . اقطعوا رأسى ، فانه يؤلمنى ولا حاجة لى به . حسبى أن يكون لى قلب !

فقال إيجين وقد فزع للتطور الذى طرأ على حالة الشيخ :

— يا كريستوف ، ادع بيان شون حالا واحضر لى عربة . سأذهب يا أبى لأحضر ابنتيك بنفسى

— عنوة ! بالقوة ! خذ معك الشرطة ، وقل للحكومة والنائب العام انى أريدهما بأى شكل

— ولكنك كنت تلعنهما منذ لحظة

فبهت الشيخ وقال له باستنكار :

— من قال هذا ؟ أنت تعلم كم أحبهما وأعبدهما . ان مجرد رؤيتهما سوف يشفينى مما بى . فاذهب يا ولدى العزيز الطيب القلب على بركة الله . كم كنت أود أن أشكرك على طيبة قلبك ، ولكن ليس لدى ما أمنحك إياه إلا دعوات رجل شقى يقف على أبواب الآخرة . أريد أن أرى دلفين على الأقل لأوصيها بك نظير المعروف الذى صنعت معى . فاذا لم تأت الأخرى فهات دلفين ، فانها لن تعصاك وستأتى من أجلك . اسعفونى ! أحشائى تحترق.ضعوا شيئاً على رأسى. ضعوا فوقها يدى بنتى ، فان هذا هو دوائى الناجع ، رباه من يجمع لهما ثروة من جديد إذا مت أنا ؟ أريد أن أشفى لأسافر من أجلهما الى أودسا لاستيراد القمح

— هدىء روعك ، فستراهما هنا بعد قليل

— رأسى . أحشائى . انى أموت . انى أباركهما

وراح فى غيبوبة ، وفى هذه اللحظة دخل بيان شون تفحص عينيه وهز رأسه وقال :

— لا أظن أنه سيفيق من هذه النوبة . وخير له أن يموت لكى لا يطول عذابه. والمال ! من أين لنا المال لاعداد كل ما يلزم ؟

فأخرج إيجين ساعته وقال لبيان شون :

— أودعها رهينة واقترض عليها ما يمكنك من المال . فانى لا أريد أن أضيع دقيقة واحدة، ولا بد أن أجد هنا ما لا أدفع منه أجر العربة عند عودتى من لدن هاتين البنتين الجاحدتين



أقسى من الصخر

ماوصل ايجين الى قصر ريستو وطلب مقابلة الكونتس حتى قيل له إنها معتكفة، فقال الوصيف:
— ولكنى حاضر من قبل أبيها الذى يموت فى هذه اللحظة
— ولكن أوامر الكونت ياسيدى مشددة
— إذا كان الكونت هنا فانى أريد أن أقابله
وبعد برهة طويلة قاده الوصيف الى صالون وجد فيه الكونت واقفا أمام مدفأة ليس فيها نار ، فقال له :

— ياسيدى الكونت إن والد الكونتس فى النزع الأخير فى هذه اللحظة ، وحالته مؤلمة ، فليس لديه فلس واحد ينفقه فى التدفئة أو العلاج وهو يطلب أن يرى ابنته قبل أن يموت
فأجابه الكونت ببرود :

— أظنك لاحظت أنى لا أكن للسيد جوريو حبا شديداً ، لأنه أفسد على ابنته وسبب لى شقاء ملها . فموته وحياته لدى سواء ، فعندى الآن أمور أولى باهتمامى . أما الكونتس فحالتها لا تسمح لها بالخروج . ثم لا أوافق على مغادرتها البيت . فقل لأبيها إنها لن تذهب لرؤيته إلا بعد أن تفى بواجبها نحوى ونحو ابنى ، فاذا كانت تحب أباها حقا ففى استطاعتها أن تحصل على حريتها فى لحظة واحدة

— أنت مطلق السلطان على زوجتك ياسيدى الكونت . ولكنى ألجأ الى أريحيتك . فهل تعدنى بابلاغها أن أباها لم تبق له فى الحياة إلا سويعات وأنه قد صب لعنته عليها لتخلفها عن سرير موته ؟

— قل لها أنت هذا الكلام بنفسك
وقاده الى صالون آخر فوجدها غارقة فى الدموع حتى لقد تحركت شفقته عليها . وألقت على زوجها نظرة وجل ورعب فأومأ الكونت برأسه مرخصا لها فى الكلام فقالت :

— لقد سمعت كل شىء ياسيدى ، فقل لوالدى إنه لو عرف حقيقة ظروفى لغفر لى ، ولكن العذاب الذى يصب على أقوى من احتمالى
فانصرف ايجين مبهوتا وقد أدرك أن الكونت يعذبها عذابا جسمانيا ، ومضى من توه الى دلفين فوجدها فى فراشها

— أنى مريضة ياصديقى فقد أصابنى برد عند خروجى من الرقص وها أننا فى انتظار الطبيب

— حتى لو كنت فى النزع الأخير لما جاز لشىء أن يعوقك عن الذهاب الى أبيك . ولو أنك سمعت صرخة واحدة من صرخاته التى سمعتها لما احتججت الآن بالمرض

— لا أعتقد أن حالة أبى سيئة الى هــــذا الحد ، فالذى يغلب حقا أن يعلم أننى جازفت بتعريض نفسى للمرض بذهابى اليه . وسأذهب بمجرد انصراف الطبيب . ولــكن أين الساعة ؟ هل بعتها ؟

قال على سريرها وهمس فى أذنها :

— اعلمى إذن أن والدك لا يملك ثمن التابوت الذى لا بد من تجهيزه له الليـلة ، فرهنت ساعتك لأننى خالى الوفاض

فقفزت المريضة من سريرها وأسرعت الى درج أخذت منه كيس نقودها ، ودقت الجرس لوصيفتها وهى تصيح :

— إنى آتية معك يا ايجين ، فسألبس بسرعة . اذهب أنت وسأصل أنا قبلك . يا تيريز أخبرى البارون أننى أريد أن أكلمه الآن لى أمر هام

وخف الفتى الى الخان مغتبطا بالبشرى التى يحملها للشيخ المسكين ، فلما وصل الى هناك فتح كيس البارونة الغنية البارزة فى الهيئة الاجتماعية ليدفع أجر العربة ، فاذا كل ما فيــه سبعون فرنكا

ولقى الطبيب والجراح الذى قام بفصد المريض خارجين ، فابتدره بيان شون قائلا :

— تشجع يا عزيزى ايجين ، فنحن فى نهاية النهاية ، ويلزمنا الآن أن نغير أغطية الفراش التى تلوثت بالدم وادع سيلفى لتساعدنا فى هذا

فلما أخبر ايجين مدام فوكير بالمطلوب قالت له :

— ياعزيزى السيد ايجين أنت تعلم أن الأب جوريو لم يعد يملك شيئاً ، فالأغطية النظيفة سأخسر ثمنها ولا محالة ، فضلا عن الأغطية الأخرى التى ستلزم التابوت ، ثم أنت مدين لى حتى الآن بمائة وأربعة وأربعين فرنكا . زد عليها أربعين فرنكا للأغطية وغيرها مثل الشمعة التى ستعطيك اياها سيلفى ، فيكون المجموع نحواً من مائتى فرنك لا تستطيع أرملة مسكينة مثلى أن تحملها ، فضع نفسك فى موضعى واعذرنى ، فان وفاة انسان فى خانى أمر يصرف عنه الناس ، وهذا الخان هو كل حياتى

فأسرع ايجين يصعد السلم دون أن ينطق بكلمة :

— بيان شون .. أين نقود رهن الساعة ؟

— هاهى فوق النضد ، ولقد بقى منها نحو ثلاثمائة وستون فرنكا بعد أن سددت جميع التزاماتنا فى الصيدلية وغيرها

وهبط ايجين كالبرق الخاطف وقال للأرملة :

— هاك ياسيدتى ! خذى حسابك كاملا ، واطمئنى ، فالأب جوريو لن يطيل البقاء عندك

— يا سيلفى .. اخرجى الأغطية واذهبى

ثم همست فى أذن ايجين :

— لاتنس سيلفى ، فانها ظلت ساهرة منذ ليلتين

وحمل الشابان الأب جوريو ليرفعاه فوق الفراش ، كل منهما من جهة حتى تستطيع سيلفى تغيير الأغطيـة ، وكانا راكعين لتسهيل العملية ، فانخدع الرجل المحتضر الذى ضعف بصره وغشاه الدمع ، فمد يديه فوجد فى كل ناحية من ناحيتى الفراش رأساً ، فجذب شعرها ثم غمغم فى ضعف شديد :

— يا ملاكى العزيزين ! ها أنتما . .

وكان الجذل ظاهراً فى كلماته الأخيرة التى فقـد بعدها الوعى ، فقد حسبهما ابنتيه . وقال بيان شون :

— هذه هى النهاية ، فسيظل هكذا بعض الوقت ثم يموت دون أن ينتبه إلى ذلك أحد ، لأن جهازه العصبى قد تعطل ، ولن يعى شيئاً ، ولن يئن أو يتأوه

وفى هذه اللحظة سمعت على الدرج خطوات امرأة شابة تصعد لاهثة . فقال ايجين :

— لقد وصلت متأخرة

ولـكنها لم تكن دلفين ، بل تيريز وصفتها التى قالت :

— لقد نشبت مناقشة حامية الوطيس بين البارونة والبارون من أجل المال الذى طلبته لأبيها فأغمى عليها وحضر الطبيب ..

— كفى ياتيريز . لم يعد لحضورها جدوى ، فقد فقد الأب جوريو وعيه نهائياً

وفيما كانت سيلفى خارجة كادت تصطدم عند الباب بالكونتس التى دخلت فى هيئة مروعة وأخـذت تبكى حين رأت والدها ساكن الأوصال فى رقدته الأخـيرة فتناولت يده وجعلت تقبلها وتقول :

— اغفر لى ياأبى فانى لم أستطع الافلات إلا الآن بعد أن أذعنت . أبى ، كنت تقول إن صوتى خليق أن يخرجك من قبرك ويقيمك من الأموات فها أنذا أدعوك . لم يعد لى سواك قلب يحبنى ويهتم بى فى هذا العالم حتى طفلاى سيكرهاننى بما جررته عليهما . خذنى معك ياأبى ، فقد تمت لى التعاسة ! حتى مكسيم دى تراى الذى كنت أظنه مخلصاً لى قد هاجر تاركا وراءه ديوناً طائلة ، وتأكد لى أيضا أنه كان يخوننى . وثروتى حملى زوجى على التخلى عنها . فاذا

بى لى ؟ إن قلبك وحدك هو القلب الذى كان ينطوى لى على حب صادق ولـكنى جحـدته وتنكرت له

وأفهمت ايجين أنها تريد أن تخلو الى أبيها فنزل ليتناول شيئا من الطعام . وبعد لحظات قليلة سمع من أعلى صوت الـكونتس تصرخ :

ــ مات أبي

وأسرع بيان شون يفحصه ، ثم هبط ليقول لسائر النزلاء :

ــ إنه مات فعلا

وحينئذ قالت مدام فوكير :

ــ الى الطعام أيها السادة فقد كاد الحساء أن يبرد



الدرس الاخير

مات جوريو . وأقبل النزلاء على الطعام قبل أن يبرد الحساء ، فلما انتهى الطعام قام ايجين وبيان شون لاعداد الواجبات الأخيرة لهذا الرجل المسكين الذى مات منبوذاً ممن عاش حياته كلها من أجلهم . وكان أمام الشابين أن يدققا فى كل شىء حتى يكفى ما معهما من مال قليل لاتمام موارانه التراب

توجها أول كل شىء لالتماس قسيس يقبل الصلاة على جثمان الميت أثناء الليل . وفى الساعة التاسعة مساء أو نحوها سجى الجثمان بين شمعتين موقدتين فى تلك الغرفة العارية ، وجلس الى جواره القسيس

وقبل أن ينام ايجين سأل رجل الدين عن أتعاب الصلاة ومراسيم الجنازة ، ثم كتب كلمة الى كل من البارون دى نوسنجين والكونت دى ريستو يرجوهما أن يرسلا من ينوب عنهما فى القيام بمصروفات الدفن . وأرسل كريستوف بالرقعتين ثم أوى الى فراشه فنام نوما عميقاً لشدة ما كان يحسه من التعب

وفى الصباح ذهب الشابان ــ ايجين وبيان شون ــ لاعلان الوفاة لدى السلطات واستخراج التصريح بالدفن . ومضت بعد ذلك ساعتان وليس من خبر من قبل البارون أو الكونت ، فاضطر ايجين الى دفع أتعاب القسيس

وطلبت سيلفى الطباخة البدينة عشر فرنكات أجراً لها على خياطة الكفن . فتشاور الشابان وقررا بعد الحساب والمراجعة أنه ليس فى طاقتهما أن يقوما وحدهما بجميع التكاليف ، فتطوع طالب الطب بيان شون بوضع الميت فى تابوته بنفسه دون معاونة سيلفى ، وأحضر التابوت مما يصرف للفقراء فى المستشفى الذى يعمل فيه للمران ، وبهذا لم يكلفه التابوت إلا مبلغاً يسيراً جدا ثم قال بيان شون لايجين فى سخريته المعهودة :

ـــ امض الى جبانة « بيرلاشيز » واشتر حوشاً بثمن مؤجل يحل بعد خمس سنين ، ثم أوص فى الكنيسة على صلاة جناز من الدرجة الثالثة . وإذا رفض الصهران والبنتان أن يدفعوا التكاليف ، فانقش على قبر المرحوم هذه العبارة

« هنا يرقد السيد جوريو »

« والد البارونة دى نوسنجين والكونتس دى ريستو »

« مدفونا على نفقة اثنين من الطلبة »

ولكن ايجين لم ينفذ هذا الرأى إلا بعد أن توجه إلى القصرين ، فوجد الأبواب هنا وهناك موصدة فى وجهه وقال له هنا البواب وذاك عبارة واحدة لم تختلف فى مؤداها

— سيداى لايقابلان اليوم أحدا ، فقد مات أبوهما ، وهما عليه غارقان فى أحزان أليمة !

وكان ايجين قد عرف بما خبره من المجتمع الباريسى أن الالحاح لا طائل تحته . وحز فى نفسه ألا يستطيع الوصول الى دلفين ، فكتب لها رقعة وهو فى حجرة البواب قال فيها :

« بيعى حلية من حليك حتى يحظى أبوك بنقلة لائقة الى مثواه الأخير »

وأقفل المظروف ورجا البواب أن يسلمه لتيريز الوصيفة كى توصله الى سيدتها ، ولكن البواب سلمه الى البارون الذى ألقاه فى نار المدفأة دون أن يفضه



وسار الموكب المتواضع الى كنيسة قريبة ، لا يتبعه الا ايجين والخادم كريستوف . فهذا الخادم كان هو الشخص الوحيد الذى شعر بدافع لتوديع الشيخ المسكين ، فشد ايجين على يده شاكراً دون أن يستطيع النطق بكلمة واحدة

وأخيراً حضر كاهنان وشماس وعريف وتلوا أقصى ما يمكن من صلاة لم يتجاوز ما دفع فيها سبعين فرنكا . ثم تلوا مزموراً وبعض التراتيل . واستغرق هذا كله عشرين دقيقة . ولما انتهت الصلاة وبدأ سير الجنازة من الكنيسة الى المدافن قال القسيس :

ـ ليس هناك مشيعون ، فمن استطاعتنا اذن أن نمضى بسرعة حتى لا نتأخر ، فالساعة الآن منتصف السادسة

ولكن فى اللحظة التى بدأ فيها تحرك العربة الجنائزية ، شوهدت عربتان فارهتان فارغتان على احداها شعار الكونت دى ريستو ، وعلى الأخرى شعار البارون دى نوسنجين . وتبعت العربتان النعش الى مقابر بيرلا شيز

وفى الساعة السادسة ووري الأب جوريو التراب ، وقد أحاط بقبره خدم بنتيه الذين اختفوا باختفاء رجال الدين بمجرد تلاوة الصلاة الأخيرة على المقبرة

وبعد أن أهال الحفاران بعض حفنات من التراب وقف أحدهما الى الحفرة ومد يده الى ايجين يطلب أجره . ففتش ايجين جيوبه فلم يجد فلساً واحداً فاضطر الى اقتراض عشرين سنتيا من الخادم كريستوف . وكان هذا على بساطته عاملا على زيادة وطأة الكآبة على نفس الشاب . وكان الجو رطباً ثقيلا على الأعصاب . فنظر الى الحفرة وذرف دمعته الأخيرة ثم عقد ذراعيه فوق صدره ووقف يرقب السحب الساكنة ، فلما رآه كريستوف على هذه الصورة تركه وانصرف

فلما ألفى إيجين نفسه وحيداً صعد الى قمة المقبرة وألقى نظرة على باريس النائمة على ضفتي السين ، وقد بدأت الأنوار الأولى تشع فيها هنا وهناك . وكانت نظرة طافحة بالازدراء والتحدي

وأول ما فكر فيه من أعمال الزراية والتحدي لهذا المجتمع الراقي ، انه يمم من توه الى حيث يتناول العشاء على انفراد مع البارونة دي نوسنجين



الرواية القادمة

مغامرات مستر بكويك

تصدر في ١٥ يناير ١٩٥٢

هلال يناير القادم

٦٠ سنة في خدمة الثقافة

الثمن ٥ قروش

عدد ممتاز